



مكة المكرمة في عيون غير المسلمين

دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحالة النصارى عن العاصمة المقدسة

أ. د. محمد محمود السرياني

د. معراج نواب مرزا

ذو القعدة ١٤٢٦ هـ
ديسمبر ٢٠٠٥ م

٣٠٧

دورية علمية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

الاشتراكات

في الكويت
للمؤسسات ١٢ ديناراً كويتياً (سنويا)
للأفراد ٦ دنانير كويتية (سنويا)

خارج الكويت
للمؤسسات ١٥ ديناراً كويتياً (سنوياً)
الأفراد ٧,٥ دينار كويتي (سنوياً)

الجمعية الجغرافية الكويتية

ص.ب: ١٧٠٥١ الكويت ـ الخالدية
الرمز البريدي: 72451

رسائل جغرافية

٣٠٧

مكة المكرمة في عيون غير المسلمين

دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحالة النصارى عن العاصمة المقدسة

أ.د. محمد محمود السرياني
جامعة اليرموك

د. معراج نواب مرزا
جامعة أم القرى

ذوالقعدة ١٤٢٦ هـ
ديسمبر ٢٠٠٥ م



طبعت بدعم كريم من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة المكرمة في عيون غير المسلمين

دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحالة النصارى عن العاصمة المقدسة

توطئة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ المرسل رحمة للعالمين وبعد.

تُعدّ مكة المكرمة أول بلد مقدس في الإسلام، ففيها أول الحرمين وثاني القبلتين، وهي مهبط الوحي والتنزيل ومحط أنظار المسلمين، يتوجهون شطرها ويحجون إليها من كل حدب وصوب. ولذلك فليس من العجيب أن تهفو لها قلوب المسلمين والمؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، وتخشع لها نفوسهم، فيتمنون على الله مخلصين أن يمنحهم التوفيق من عنده لزيارتها، ويكتب لهم حج البيت إليها قبل أن يتوفاهم الله إليه، ويفارقوا هذه الحياة الدنيا.

وكيف لا تكون لهذا البلد الأمين مثل هذه القدسية وهذا التبجيل عند المسلمين، فهو عنوان مجدهم وينبوع هدايتهم وعقيدتهم، وكيف لا ترنو إليه الأبصار، وتهفوا له الأفئدة، وهو الذي تمتزج ذكرياته الحافلة بتاريخهم العريق، وتشتبك أحاسيسه بمجدهم التليد.

فقد كان لظهور الإسلام، الذي تفجرت ينابيعه من بطاح مكة، ووهادها

القاحلة، وللمعجزة الخالدة التي حققها محمد ﷺ والمهتدون بهديه في نشر الإسلام، بمثل تلك السرعة الخاطفة في الخافقين، صدى مازال يرن في الغرب ويدوّى في أرجائه. فذهب علماؤه ومستشرقوه يبحثون في كل ما له علاقة بهذه الدعوة، التي اهتدى المسلمون بهديها واستضاؤا بنورها، فأخذ العالم يدرس أحوال مكة التي انبثق منها ذلك النور، ويمحص المؤرخون جميع ما يمت إليها بصلة. وقد بلغ من اهتمام الغربيين بمكة أن دخل اسمها في لغتهم، وأصبح كلمة خاصة تدرس في القواميس، لتدل على الجهة التي يتوجه إليها الناس أو يقصدونها بصفة دائمة.

ولم يكتفوا بذلك فقط، وإنما شد لها الرحالون الغربيون رحالهم أيضاً وقصدها السياح والمسافرون منهم، فجازفوا بأنفسهم وأرواحهم ليدخلوا فيها ويحجوا إليها متنكرين. وقد حالف التوفيق عدداً منهم، وفشل كثيرون غير هؤلاء، فتكونت مما كتبوه ودونوه عن تلك الدراسات ثروة علمية، يصعب على الباحث أن يحيط بها كلها، لاسيما وإن ما كتب لم يكن في لغة واحدة، وإنما كتب بلغات عدة أخصها الإنجليزية والألمانية والفرنسية.

ولا يخفى أن الدوافع التي تدفع الغربيين إلى الاهتمام بمكة وما يتصل بها من شؤون، أو الكتابة عنها، هي دوافع معروفة أهمها: الأغراض التبشيرية، أو البحث العلمي، أو المجازفة والتطويح، أو التجسس والأغراض السياسية في الغالب (موسوعة العتبات المقدسة، قسم مكة، ص ١٧٩ ـ ١٨٠).

وهدفنا في هذا البحث تقييم أهداف هؤلاء الرحالة وانطباعاتهم والمعارف التي دونوها عن العاصمة المقدسة. لقد قدم هؤلاء معلومات مهمة عن مكة المكرمة - مركز الإسلام الروحي - تشتمل على مشاهدات وملاحظات وانطباعات. وقد عَدّد رالي (Ralli) ستة عشر شخصية أوروبية زارت المدينة المقدسة خلسة[١].

---

(١) لقد كتب رالي Ralli وهو أحد الأدباد الإنجليز كتابا مشهورا سماه «نصارى في مكة» تحدث فيه عن أهم الرحالة الذين زاروا مكة المكرمة. وقدم عرضا سريعا لما حوته كتبهم من معلومات عن العاصمة المقدسة. وقد قمنا بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وهو الآن في مراحل النشر الأخيرة.

سنحاول في هذا البحث استعراض معظم هذه الشخصيات التي كتبت عن مكة المكرمة بمختلف اللغات الأوروبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية وغيرها من اللغات الأوروبية. ولحسن الحظ فإن معظم ما كتبه هؤلاء مترجم إلى اللغة العربية. وقد كان لجهود الباحثين والكتاب السعوديين ومراكز الأبحاث العلمية (وعلى رأسها الدارة) والجامعات السعودية اليد الطولى في نقل معظم هذه المؤلفات إلى لغة الضاد.

هذه الكتابات لا تمثل أبحاثها موضوعات مهمة في تاريخ العاصمة المقدسة فحسب، بل في أقوال هؤلاء الكثير من الوقائع والأحداث التي لم يكتبها أحد غيرهم، مع الأخذ بعين الاعتبار أن في أقوال بعضهم كثيرا من التجني ومجانبة الواقع، مما يستدعيه التعصب أو الجهل في بعض الأحيان. وعلى الرغم من ذلك فهذه الرحلات وثائق مهمة، ترسم صورة للشرق القديم، من عيون رحالة غربيين لهم ظروفهم الخاصة، ولا نملك أن نجردهم من عواطفهم سواء أكانت هذه العواطف منبعها الحب أو الإعجاب أو الكراهية، وقد لا نكون منصفين عندما نضع كافة هؤلاء الرحالة في زمرة واحدة. والخلاصة العامة أن هؤلاء قدموا معلومات كانت الأولى من نوعها في أوروبا في حينها.

سينحصر اهتمامنا في هذا البحث في الأمور التالية:

١- تقييم المعارف الأوروبية عن الجزيرة العربية بشكل عام، والديار المقدسة بشكل خاص.

٢- تقييم الأهداف العامة لهذه الرحلات.

٣- التقييم الإسلامي لدخول هؤلاء الرحالة إلى الديار المقدسة.

٤- تقييم كتابات هؤلاء الرحالة عن العاصمة المقدسة.

أولا- تقييم المعارف الأوروبية عن الجزيرة العربية والديار المقدسة:

يمكننا في هذا الصدد أن نتحدث عن تطور المعرفة الأوروبية حول الجزيرة العربية والديار المقدسة من خلال:

١- المعارف اليونانية والرومانية (المعارف القديمة).

٢- المعرفة الأوروبية بعالم الإسلام المعادي في العصور الوسطى (عالمان متباعدان).

٣- المعرفة الأوروبية منذ عصر النهضة والكشوف الجغرافية (المعرفة الحديثة المعاصرة).

١- المعارف اليونانية والرومانية (المعارف القديمة)

لقد كتب الإغريق عن شبه الجزيرة العربية فيما مضى، فقد استقصى هيرودوس، مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد من مصر، معلومات طريفة عن شبه الجزيرة العربية، وأغنامها الغريبة، وطيوبها الشهيرة، كالبخور والصبر وخيار شنبر، والقرفة والكافور واللادن. وتحدث ثيوفراست تلميذ أرسطو، عن السبئيين من سكان جنوب شبه الجزيرة العربية وصفا إياهم كمحاربين، أو زراع أو تجار يسافرون على ظهور السفن، أو على زوارق من جلد، ولكن أكثر نشاطاتهم مكسبا نقل المقر الذي تستخرج منه أقوى العطور، إلى البلدان المجاورة، وفي مستهل القرن الأول للميلاد، رسم المؤرخ اليوناني ديودور الصقلي صورة أكثر حيوية لبلاد العرب، بلاد الطيوب وسكانها من السبئيين المتفوقين على جميع من جاورهم بثرواتهم الطائلة التي يجنونها من التجارة.

لكن السبئيين ليسوا الشعب الوحيد، الذي اشتهر في جنوب الجزيرة العربية. فقد تحدث الجغرافي اليوناني سترابون، حوالي مستهل القرن الأول الميلادي، عن الشعوب الأربعة المهمة، ناقلا معلومات كان قد أوردها إيراتوستين، الفلكي الإسكندري، الذي عاش قبل ذلك بثلاثة قرون. وهذه الشعوب الأربعة هي المعينيون

ويجاورهم السبئيون، ثم القتبانيون ثم الحضرموتيون. وكانت كل مدينة من مدن تلك الممالك خاضعة لزعيم، مزدهرة كل الازدهار، تزينها المعابد والقصور.

ويذكر سترابون أن الإمبراطور الروماني أوغسطوس، كان قد وطد العزم سنة ٢٤ ق. م، على أن يستولي على تجارة القوافل هذه، التي تكسب سكان الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، تلك الثروات الأسطورية فعهد إلى القائد إيليوس غالوس بقيادة حملة لهذا الغرض، لكن الحملة لم تحقق أهدافها. وأخفقت في السيطرة على التجارة العربية.

لقد كانت شبه الجزيرة العربية، حسب رواية إيراتوستين تتألف من جزئين كبيرين يختلف كل منهما عن الآخر، ففي الجهات الجنوبية توجد العربية السعيدة. أما في الجهة الشمالية فتقع العربية القفراء، وهكذا نجد أو الأوروبيين في مستهل القرن الأول الميلادي، كانت لديهم فكرة موجزة عن طبيعة البلاد وسكانها وحضارتهم، غير أنه لم يكن لديهم أي فكرة واضحة عن شكل هذه البلاد، إذ لم يكونوا قد تعلموا آنذاك رسم الخرائط، ولم يتمكن الملاحون الإغريق، حتى القرن الثاني الميلادي، من إعطاء فكرة واضحة عن شكل السواحل الحقيقية للجزيرة العربية.

ونجد في المؤلفات التي وضعت في مستهل التاريخ الميلادي، عدداً متزايدا من المعلومات عن داخل البلاد. فقد أورد المؤرخ الروماني (بليني) في القرن الثاني الميلادي، لوائح بأسماء القبائل والمدن والقرى في القسم الأوسط لشبه جزيرة العرب، وبرهن عن معرفة أدق بالسكان الحضر منهم والبدو.

وأخيراً نجد في كتاب بطليموس أطلسا حقيقيا، يحتوي تعليقات وشروح، وتحديد دقيق، لكثير من المواقع الجغرافية. موقعه على خطوط الطول والعرض التي اقترحها آنذاك.

بعد انهيار الحضارة الرومانية، ساد أوروبا جهل مطبق خلال القرنين الرابع

والخامس ولم يكن لأوروبا شيء من المعرفة القديمة بشؤون الجزيرة العربية، اللهم إلا ما حفظ في مكتبات الأديرة والكنائس، من بقايا المعرفة الإغريقية القديمة. وما ذكره الكتاب المقدس عن بعض المواقع العربية، يؤيد ذلك ما قالته جاكلين بيرين، صاحبة كتاب اكتشاف جزيرة العرب، التي ذكرت أنه اعتبارا من القرن الخامس الميلادي وحتى بداية عصر النهضة، لم يكن لأوروبا فكرة عن شبه الجزيرة العربية (بيرين ١٩٦٣: ١٩).

٢- عالمان متباعدان

كانت المعرفة الأوروبية محدودة جدا، بمناطق جنوب وشرق البحر المتوسط، الذي نشأت حوله أولى حضارات العالم. كان المعروف آنئذ أن أغنياء الإغريق والرومان كانوا يستهلكون يوميا أفاوية الهند، والكهنة يحرقون بخور بلاد العرب، والجيوش الرومانية تحارب الفرس. والصورة الأوروبية باهتة عن الشرق وحضارته. ومنذ ظهور الإسلام أصبح على جانبي المتوسط حضارتان متباعدتان بل عالمان متعاديان.

اجتاحت الجيوش الإسلامية، التي خرجت من الجزيرة العربية، بلاد الشام والعراق وفارس، وتقدمت شرقا إلى مشارف الصين. وفي الجناح الغربي فتحت جيوش الإسلام، مصر وشمال أفريقيا، واتجهت من هناك شطر أسبانيا، وصعدت حتى نهري الرون واللوار، وهناك تمكن شارل مارتل من إيقاف زحف الجيوش الإسلامية في بواتيه (٧٣٢م) واضطرها إلى التراجع وكانت تلك نقطة الحدود التي لم تتخطاها فيما بعد.

لقد وضعت موجة الفتح المتدفقة، فاصلا ماديا ما بين أوروبا وبلاد العرب. وقد أنشأ العرب خلال القرون التي تلت الفتوحات في دولتهم، التي كانت تضم أسبانيا، حضارة باهرة فاتنة ليس بأبهتها بل بازدهار العلم والفكر أيضاً، مما حدا بالأوروبيين

إلى ارتياد جامعاته والنهل من معارفه، ومع هذا لم تتسع معارف الأوروبيين عن جزيرة العرب، قدر اتساعها عن المناطق المحيطة بها، كبلاد الشام ومصر والمغرب.

بلغت الحضارة الإسلامية أوجها ما بين القرنين الثاني والخامس الهجريين/ الثامن والحادي عشر الميلاديين، وكانت هذه الفترة، فترة استراحة فاصلة في العلاقات الإسلامية الأوروبية. فترة فاصلة بين تدفق الموجتين المتعاكستين من الصراع. الموجة الدافعة بالإسلام إلى غزو الغرب، ونشر الإسلام في ربوعه، والموجة الغربية المعاكسة للقضاء على الإسلام، واستعادة قبر المسيح عليه السلام والأماكن المقدسة، فيما عرف باسم الحملات الصليبية.

لا يهمنا من موضوع الصراع الصليبي، سوى معرفة مدى تأثيره في المعرفة الأوروبية بالجزيرة العربية. فهل أتاح الغزو الصليبي اتصالا مباشرا بشبه الجزيرة العربية، المجهول الغامض لدى الفرد الأوروبي. لقد أقام الصليبيون مملكة بيت المقدس، واستولوا على المناطق الممتدة من أنطاكية شمالا، حتى الشوبك والعقبة جنوبا، وخلال القرن الثاني عشر الميلادي (١١٨١م) حاول الأوروبيين الوصول إلى قلب الجزيرة العربية، على يد رينولد دي شاتيون، أمير الكرك الصليبي، الذي أثاره ما كان يسمعه عن الكنوز المكدسة، حول قبر الرسول ﷺ في المدينة المنورة، فقام بتجاوز حدوده، ودخل الجزيرة العربية، غير مكترث بالمعاهدات التي كانت تربط مولاه ملك بيت المقدس الصليبي، مع صلاح الدين الأيوبي أمير الشام ومصر آنذاك.

تقدم رينولد، سيد الكرك، إلى القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية المجاور لتخوم إمارته، قاصدا المدينة المنورة، ولم يتمكن من بلوغ المدينة، فاعترض قافلة مسلمة متجهة من دمشق إلى مكة، وسلبها كل ما كانت تحمله. ولم يكتف بذلك، بل احتل بعض المواقع على خليج العقبة، ونقل إليها على ظهور الجمال، سفننا مفككة، أعاد تركيبها فيه، وأبحر في البحر الأحمر جنوبا، ووصل إلى أحد شواطئ الحجاز، واستعد للزحف على المدينة المنورة.

غير أن صلاح الدين الأيوبي، نقل بالطريقة نفسها بعض السفن المفككة من مصر إلى البحر الأحمر، وقام قواده بهجوم معاكس، على سفن رينولد، وحطموها ثم تولت الجيوش البرية مهاجمة الفرنجة المتوجهين إلى المدينة، وتم القضاء على معظمهم، وأعدم في مكة والمدينة والقاهرة ودمشق الـ (١٧٠) جنديا الذين نجوا من الموت في المعركة. وهكذا ظلت شبه الجزيرة العربية مصونة الحمى، بعيدة عن الأيدي الأوروبية.

جاء الفتح العثماني للبلاد العربية في مطلع القرن السادس عشر. وبسط الخلفاء العثمانيون سلطانهم على معظم البلدان الإسلامية، بما فيها الجزيرة العربية. غير أن سلطانهم كان اسميًا. وبما أن الأتراك قد اعتنقوا الإسلام، فقد ظلت خلافاتهم بالنسبة إلى الأوروبيين عالما مغلقا معاديا، شأنه شأن الدولة الإسلامية، ووقفت أوروبا والإسلام وجها لوجه، كعالمين كل منهما غريب عن الآخر، يتعذر تداخلهما ماديا وروحيا. وأسدل ما بين أوروبا الناشئة، وشبه جزيرة العرب ستار كثيف من الجهل الشديد.

لقد كان كل ما يعرفه الأوروبيون أن النبي محمد ﷺ ولد في شبه الجزيرة العربية، وأن اسم المدينتين المقدستين فيها مكة والمدينة، وكان يسود اعتقاد خاطئ بأن جثمان النبي ﷺ معلق في الهواء في معبد مكة. ولم تكن أي سفينة أوروبية تزور سواحل شبه الجزيرة العربية، ولم يكن يدخلها أى مسيحي، إلا إذا اعتنق الإسلام، وتخلق بأخلاق العرب، وساكنهم، وهكذا بدت شبه الجزيرة العربية عالما مفقودا بالنسبة إلى الأوروبيين، عالما يستثير الشوق، أكثر من قارة مجهولة، ليس لأن بها بقاعا يجب استكشافها، ولا علم لأوروبا بشكلها وحقائقها، بل لأنها كانت تمثل إطارا لحضارة مجهولة للأوروبيين، ولدت الرغبة لديهم في اكتشافها من جديد.

٣- عصر النهضة والكشوف الجغرافية وارتياد المجهول

اضطرمت في أوروبا نار حب الاطلاع والمعرفة والاكتشاف، في أواخر القرن

الخامس عشر، فأخذت تتقوى وتوحد صفوفها، وتفكر وتتعلم، وتجوب البلاد، وتكشف الأمصار، حتى كان كشف أمريكا عملا من أعمال أسبانيا، والدوران حول أفريقيا وكشف طريق الهند عملا من أعمال البرتغال.

لقد كان لهذه الكشوف دوافع عديدة، منها معرفة الطرق المؤدية إلى ثروات الشرق عامة، وكذلك لتطويق العالم الإسلامي، استمرارا لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد. كانت إستراتيجية البرتغال، على سبيل المثال، هي البحث عن طريق تجعل البضائع تصل مباشرة من الهند والصين وإندونيسيا دون المرور بالخليج العربي، والبحر الأحمر، ثم عبر الدول الإسلامية، المحيطة بتلك الطرق البحرية، التي استمدت قوتها من هذه التجارة. فقد كان ذلك مصدر القوة الاقتصادية والسياسية للبلاد الإسلامية في تلك الفترة.

في القرن الخامس عشر، مازالت البرتغال وأسبانيا تحاربان المسلمين في الأندلس، وأصبحت البرتغال قائدة المسيحية ضد الإسلام، وكان محاربة المسلمين عند المتدينين والوطنيين من شعب إيبيريا واجب مطلق، ومركب ذو قوة متعادلة بين الواجب الديني والوطني.

يقول بانكر (Pannikar, 1966): «الإسلام هو العدو الوحيد، ويجب محاربته في كل مكان، ولا يمكن فهم الكثير من نشاطات البرتغاليين في آسيا، إلا من خلال هذا المفهوم... لم يكن التوسع الأوروبي في المياه الآسيوية بمثابة تقدم حضاري، كما صوره بعض المؤرخين، ولا بمثابة لعبة يحركها التجار الأذكياء من وراء الكواليس، وإنما هي محاولة للحد من السيطرة البحرية للدول الإسلامية، الواسعة الانتشار في الشرق الأوسط». لقد دخل الأسطول البرتغالي في معارك عديدة مع الأسطول المملوكي، الذي يمثل قوة المماليك في مصر والشام، وذلك في مطلع القرن الخامس عشر (١٥٠٠م) ثم في عام (١٥٠٩م)، ولقد أحرز البرتغاليون النصر في هذه المعارك، ثم حاصروا عدن وجزيرة سوقطرة ومضيق هرمز، ثم احتلوا غوا على ساحل الهند، ووصلوا إلى ملقا في جزر الهند الشرقية.

لقد استشهد هذا المؤرخ، الذي كتب عن نشاط الأوروبيين في آسيا مدة ٤٥٠ عاما، يقول «إن البوكيرك، أحد القواد البرتغاليين الذي تلا وصول فاسكودي جاما إلى الهند، قال أمام جيشه في ملقا، إنه بإبعاد المور (المسلمين) عن تجارة البهارات يأمل البرتغاليون اختراق قوة المسلمين (Pannikar, p.17). أن الخدمة التي سنقدمها لربنا بطرد المور هي إطفاء نار دين محمد ﷺ، ولن تنتشر تلك النار بعد ذلك أبدا، أنا واثق جدا، أننا إذا استولينا على التجارة من هؤلاء المور، ستتحطم القاهرة ومكة والبندقية (كانت البندقية من أعداء البرتغال)، ولن يحصلوا على البهارات، إلا إذا ذهب تجارهم واشتروها من البرتغال (Pannikar, p.40).

لقد أيقظت الكشوف الجغرافية العقول الأوروبية، فأخذت تتساءل عن كل شيء في هذا العالم، ولم يكتف رجالات عصر النهضة بالاطلاع على ما وجد في الكتب، بل حاولوا التحقق عن طريق الرؤية والمشاهدة. وهذا ما حدا الكثير منهم إلى دخول الشرق، واكتشاف أسراره الغامضة بالنسبة لهم. ومن هنا بدأت الحكومات بتمويل الرحلات العلمية إلى مختلف مناطق العالم، وخاصة دول الشرق الإسلامي.

لقد تزامنت أول رحلة إلى مكة (١٥٠٣ ـ ١٥٠٩م) مع رحلة فاسكو دي جاما للدوران حول أفريقيا، ومحاولة الوصول إلى الهند، وبينما كان أول رحالة أوروبي (بارتيما) يبحر من البندقية، قاصدا بلاد العرب، كانت الأساطيل البرتغالية تقيم المحطات التجارية، وتقصف المدن الساحلية، على طول الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي.

ثانيا- تقييم أهداف الرحالة الغربيين:

لقد دخل مكة المكرمة، ما بين عام (١٥٠٣م) وحتى عام (١٨٩٤م) ١٦ شخصية أوروبية (انظر جدول رقم ١) وكان رحلتان منهما قد تمتا خلال القرن

جدول رقم (١)

الرحالة الذين زاروا مكة بين عامي ١٥٠٣ - ١٨٩٤م

الاسم بالعربية	الاسم باللاتينية	سنة الزيارة
١. لودوفيكو بارتيما (الحاج يونس)	Ludovico Bartema	١٥٠٣
٢. فينسانت لي بلانك	Vincent Le Blanc	١٥٦٨
٣. يوهان وايلد	Jojann Wild	١٦٠٧
٤. جوزيف بيتس	Joseph Pitts	١٦٨٠
٥. باديا ليبلتش (علي باي العباسي)	Badia Y. Leblich	١٨٠٧
٦. أوليرش ياسبر سيتزن (الحاج موسى)	Ullrich Jasper Seetzen	١٨٠٩ - ١٨١٠
٧. يوهان لودفيج بيركهارت (الحاج إبراهيم)	John Ludwig Burckardt	١٨١٤_١٨١٥
٨. جيوفاني فيناتي (الحاج محمد)	Giovanni Finati	١٨١٤
٩. ليون روشيه (الحاج عمر)	Leon Roches	١٨٤١_١٨٤٢
١٠. جورج أوغسطس والين (ولي الدين)	George Augustus Wallin	١٨٤٥
١١. رتشارد بيرتون (الحاج عبدالله)	Sir Richard Burtin	١٨٥٣
١٢. إينريك فون مالتزان (عبدالرحمن بن محمدالسكيكدي)	Heinrich Freiher Von Maltzan	١٨٦٠
١٣. هرمان بيكنل (الحاج عبدالواحد)	Herman Bicknell	١٨٦٢
١٤. جون فرايركين (الحاج محمد أمين)	John Fryer Keane	١٨٧٧_١٨٧٨
١٥. كرستيان سنوك هورخرونيه (عبدالغفار)	Christian Snouk Hurgronje	١٨٨٥
١٦. جيرفاس - كورتيلمو (الحاج عبدالله)	Gervas - Courtellemont	١٨٩٤

السادس عشر، أولهما رحلة لودوفيكو بارتيما، في بداية القرن عام (١٥٠٣م) والثانية بداية النصف الثاني منه رحلة فينسانت لي بلانك عام (١٥٦٨م). وقد شهد القرن السابع عشر رحلتان أخريان، قام بالأولى منهما يوهان وايلد عام ١٦٠٧م، بينما الرحلة الأخرى كانت في الربع الأخير منه، وهي رحلة جوزيف بيتس عام ١٦٨٠م.

ونستطيع القول إنه حتى حلول القرن الثامن عشر، لم تكن أوروبا قد وجهت اهتماما إلى غرب الجزيرة العربية، ولم تكن لديها معلومات متوافرة حول منطقة الحجاز، إلا من خلال كتب الجغرافيين المسلمين، التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية، وبعض كتب الرحالة الأوروبيين، وما عدا ذلك فالمعلومات يسيرة أو معدومة، باستثناء سواحل البحر الأحمر، التي كانت معروفة للأساطيل الأوروبية، وخاصة الإنجليزية، بحكم ارتيادها إلى مواني البحر الأحمر في طريقها إلى الهند.

إلا أنه بحلول القرن التاسع عشر، انصب اهتمام أوروبا بهذه المنطقة، ووجهت الرحلات العديدة، لاستكشاف المدن المقدسة في الحجاز، حتى أنه خلال هذا القرن تمت اثنتا عشرة رحلة قام بها أوروبيون من مختلف مناطق القارة، إلى الديار المقدسة، تحت أسماء إسلامية.

الرحلات الأوروبية هي امتداد لحركة الاستشراق والمستشرقين. والاستشراق بحد ذاته هو من تراث الإمبراطوريات الغربية، التي كانت ولا تزال تحرص على دوام مصالحها في البلاد الأخرى، وحتى الرحلات العلمية ذات الطابع الأكاديمي، كانت مرتبطة بالسياسة، أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة، ونادرا ما حادت عن أهدافها السياسية، بالإضافة إلى الأهداف العلمية. يقول أحد العلماء البريطانيين «إن التعاون الوثيق بين الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، ووزارة الحرب البريطانية، مكّن من القيام بالعديد من الرحلات السرية، بهدف مزدوج جغرافي - أكاديمي. وهذا الهدف المعلن المقنع للآخرين، كان المبرر لأن يباشر الضباط، ذوو المهام الخاصة رحلاتهم. وهذه هي الوسيلة التي استخدمتها جميع الدول الكبرى لتحقيق أهدافها» (الفارس، ٢٠٠٠: ٦).

لم يكن من الشائع أن يتحدث الرحالة عن الأسباب الحقيقية التي تدفعهم إلى ركوب مثل هذه المغامرات، ولذلك كان لابد من غطاء لمثل هذه الرحلات، التي تهدف في الغالب، لجمع المعلومات، ودراسة عادات الشعوب وأحوالهم المعيشية والسياسية، فيستفيد من هذه الدراسات مختصون ينتمون إلى مجتمعات متطورة تملك القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية. فالرحالة الغربي يرسل لجمع المعلومات والأخبار، وليدون المشاهدات لصالح بلاده، أو الجهة التي أوفدته «أن مفهوم الرحلة باعتبارها وسيلة لجمع المعلومات وتسجيلها أمر شائع في المجتمعات التي تمارس درجة عالية من القوة السياسية، فالرحالة يبدأ رحلته وتكون وراءه أمة ذات سلطان، تدعمه بنفوذها العسكري والاقتصادي والروحي» (الفارس، ٢٠٠٠ : ٦ نقلا عن القباني، ١٩٨٨: ١٣ - ٢٠).

إن الدراسة المتعمقة للظروف والملابسات التي تتم بها الرحلات، يمكن أن تساعدنا في فهم بعض الأهداف الخاصة، التي كان يطمح هؤلاء الرحالة في الوصول إليها، وتحقيقها لخدمة مصالح الدول المختلفة، التي قدم منها هؤلاء الرحالة، أو التي عملوا لحسابها. وفي استعراض الرحلات التي تمت إلى الديار المقدسة، يمكن رؤية المصالح التي كانت تطمح إليها العديد من الدول الأوروبية، ابتداءا من أسبانيا والبرتغال غربا مرورا ببريطانيا وفرنسا وألمانيا وانتهاء بروسيا شرقا.

أما الأهداف المعلنة لهذه الرحلات، فهي كثيرة ومتعددة، إذ يقول هؤلاء الرحالة إنهم جاءوا للاستكشاف والسياحة، ولتعلم اللغة العربية، وجمع المخطوطات الإسلامية، والبحث عن الآثار، وزيارة الأماكن المقدسة، وشراء الخيول العربية الأصيلة، والبعد عن الحياة الأوروبية الصاخبة، والاستمتاع بدفء بلاد الشرق وسحرها.

لقد جاء هؤلاء من معظم العواصم الأوروبية، وتحت كل الذرائع، غير أن هناك خيطا واحدا يجمع معظم هؤلاء جميعا، هو خدمة مصالح بلادهم السياسية،

ودراسة أفضل السبل التي تمكن دول هؤلاء الرحالة من إيجاد مواطئ أقدام لها في الجزيرة العربية.

قال بارتيما (وهو أول رحالة أوروبي تطأ قدماه مكة المكرمة): «لو أنني سئُلت عن السبب في رحلتي هذه، فإنني لن أقول أكثر من أنها الرغبة الجامحة في المعرفة، وهي الرغبة نفسها التي دفعت كثيرين غيري لمشاهدة العالم وعجائب الخالق. ولأن كثيرا من أجزاء العالم قد زارها غيري، كان عزمي أن أزور وأصف البلاد، التي لا نعرف عنها بما فيه الكفاية». بهذا الهدف المعلن، بدأ كتاب رحلات لودوفيكو بارتيما، الذي قدم نفسه للناس في الحجاز واليمن وعدن، بأنه الحاج يونس المصري، وفي الهند الحاج يونس العجمي.

إن معرفة الظروف التاريخية التي تمت خلالها هذه الرحلة أمر ضروري. فقد كان لأوروبا، في أواخر القرن الخامس عشر، وبدايات القرن السادس عشر، أهداف خاصة، لإعادة تقييم معارفها عن العالم الإسلامي، وكذلك إعادة ترتيب أوراقها لمواجهته بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة، بالإضافة إلى أسباب عملية ملحة، تلح على الأوروبيين، لتعميق معرفتهم بالنظم السائدة في العالم الإسلامي خاصة. ولقد تزعم تلك الحركة الإسبان والبرتغاليون. وكان بارتيما يعمل لحساب ملك البرتغال، الذي موَّل رحلته، والذي قدم له نائبه في الهند براءة الامتياز والفروسية، وضمه إلى جيوشه المحاربة أحيانا. لذلك فبعض المصادر تشير إليه، على أنه رحالة برتغالي تماما، مثل كولمبس الذي تعارف الناس أنه رحالة أسباني، مع أنه من أصول إيطالية، والواقع أن بارتيما لم يكن فيه من إيطاليا سوى أنها موضع مولده، ومصدر لغته، أما فيما عدا ذلك فهو برتغالي، يعمل لصالح الحكومة البرتغالية. (رحلات بارتيما الحاج يونس المصري، ١٩٩٤ : ١٠).

وإذا كانت رحلة فاسكو دي جاما، قد انتهت باكتشاف الطريق إلى الهند الذي كان يحتكره المسلمون، فإن مهمة بارتيما كانت أكثر تعقيدا، فقد كان مكلفا بوصف

عادات الشعوب، وكتابة تقارير عن جيوشها، وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية، خاصة ذات القيمة التجارية العالمية، وباختصار كانت مهمة بارتيما التجسس الشامل، على كل الشعوب والجماعات التي مر بها، خاصة الإسلامية منها (رحلات فارتيما الحاج يونس المصري، ١٩٩٤: ٩).

أما شخصية باديا ليبلتش (علي باي العباسي) فهي شخصية محاطة بالألغاز. ومما يعيننا على رسم المعالم العامة لأهدافه وغاياته، التعرف على سلوكه، قبل الترحال وبعده، فعلي باي تعلم العربية والعلوم في الأندلس. وعندما كان في لندن عام ١٨٠٢ ناقش أعضاء الجمعية الأفريقية في إمكانية اكتشاف القارة. وفجأة يبدأ الترحال، تحت اسم مستعار، وهو يملك ثروة طائلة. فيبدو تارة أنه كان يعمل لحساب أسبانيا، وعلى الأرجح أنه كان يعمل لحساب نابليون، الذي بدأ يهتم بالعالم الإسلامي، استعدادا لغزوه، خصوصا أن نابليون كان يخطط لاحتلال الشاطئ الجزائري، بهدف إقامة مستعمرات في شمال أفريقيا، لزراعتها بالحبوب، لإمداد جيوشه بالتموين منها. وعندما دخلت فرنسا الحرب مع روسيا عام (١٨٠٥م)، ازدادت قناعة نابليون بفكرة غزو الجزيرة العربية. والخلاصة أن علي باي العباسي كان عضوا فاعلا في لعبة ومؤامرة دولية، كانت تحاك للمنطقة في ذلك الوقت. ومما يؤكد عمالة هذا الرحال، أنه عندما عاد إلى أوروبا، استقبله الإمبراطور نابليون. والتقاه أكثر من مرة، وعمل مع أخيه جوزيف بونابرت، ووضع نفسه في خدمته. وعرف في فرنسا باسم الجنرال «باديا» وقد حاول العودة إلى مكة ثانية عام ١٨١٨م، ولكنه مات جنوب دمشق، وعندما جهز للدفن وجرد من ثيابه، وجد متوشحا بالصليب. وتشير بعض المصادر الفرنسية إلى أنه قُتل مسموما بيد المخابرات البريطانية، لأن الرحالة الجواسيس كانوا يتحاربون، ويكيد بعضهم لبعض في بعض العواصم الشرقية. (الفارس، ٢٠٠٠: ١٨-١٩). وكذلك بدول (١٩٨٩: ٣٢-٣٤).

في الوقت الذي غادر علي باي العباسي القاهرة إلى الحجاز، كانون أول/

ديسمبر ١٨٠٦م، كان عميل دولة أجنبية أخرى، يحاول الانطلاق من العاصمة المصرية، إلى الحجاز في هدف مشابه إنهم هذه المرة الروس، مع أن اسم موفدهم يوحي بأنه ألماني الأصل، كان أوليريك ياسبر ستيزن، الذي كان في التاسعة والثلاثين، ويحمل من الكفاءات العلمية أكثر من أي رحالة أوروبي، فقد درس الطب وعلم النبات والهندسة المدنية وهندسة المناجم، بالإضافة إلى اللغة العربية، وقد أطلق ستيزن على نفسه لقب مستشرق، لكن مهمته الحقيقية كانت إرسال التقارير إلى القيصر الروسي، عن الوضع العسكري في آسيا الوسطى، التي وقفت في وجه التوسع الروسي، ومن أجل أن يعطي تلك الرحلة المصداقية المطلوبة، جاء إلى مكة المكرمة، يدعي تأدية فريضة الحج، وقد استطاع التسلل إلى مكة المكرمة، ثم إلى المدينة المنورة (١٨٠٩م) حيث اعتقل وطرد، إلا أنه عاد إلى مكة، ليجمع معلومات عن القيادات الفكرية في المجامع الإسلامية، ثم غادر إلى اليمن، حيث مات بالسم، للاشتباه بأنه جاسوس.

ذهب لودفيغ بيركهارت، السويسري الجنسية، إلى الجزيرة العربية، وسافر لحساب الجمعية الجغرافية الأفريقية، وهي الجمعية التي تسعى إلى اكتشاف قلب أفريقيا، والتي كانت تمولها إدارة المستعمرات البريطانية، لغرض التعرف على المناطق قبل محاولة احتلالها واستعمارها. غير أن بيركهارت لم يصل إلى أفريقيا الغربية، بل بقي في الشرق العربي، ينتقل في أرجائها كمسلم.

لقد خدم هذا السويسري، القادم من بلاد الساعات وضبط الثواني، التاج البريطاني بكتاباته، التي تميزت بالدقة المثيرة. فعندما وفد البريطانيون غازين ومستعمرين، وجدنا بين أيدي مخابراتهم، مذكرات وأوراق بيركهارت عن المنطقة وسكانها.

تدخل قصة ليون روش، أحد مشاهير الرحالة إلى الجزيرة العربية، الذي هاجر إلى الجزائر في شبابه، وعمل ضابطا في الحرس الوطني الفرنسي، وبعد ذلك أصبح

مترجما في الحملة الفرنسية، ضد الزعيم الوطني عبدالقادر الجزائري، وقد نمت لدى روش موجة إعجاب شديد بالزعيم الوطني. وما لبث أن اعتنق الإسلام من أجل أن «يجمع بين الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحية، ثم التحق بمعسكر عبدالقادر الجزائري لفترة من الوقت، وعندما بدأ عبدالقادر الجزائري الاستعداد لحملة على الفرنسيين، تردد روش وامتنع، وترك معسكر الأمير، ثم ذهب إلى باريس، وانضم إلى موظفي الدولة، وعادت إليه أحلامه بالجمع بين الجزائر وفرنسا، وهكذا وضع مشروع فتوى في هذا الشأن، وذهب إلى جامعة برقة في ليبيا، لكي يطلب إلى العلماء المسلمين التصديق، عليها فأحالوه بدورهم إلى علماء الأزهر، الذين قالوا له إن مجلس العلماء في مكة المكرمة، وحده هو الذي يستطيع التصديق عليها، لذا سافر إلى مكة، بتكليف من حاكم الجزائر، الذي رأى أن في هذه الفتوى، ما يجعل الاستقرار في الجزائر للسلطات الفرنسية أمرا ممكنا. وهكذا وجد روشيه نفسه في خدمة الجهاز السري الفرنسي. وحين عاد إلى أوروبا انتابته نوبة من الندم من جراء عمله التجسسي، فرأى أن الطريق الوحيد إلى الهرب هو الانتماء إلى سلك الرهبنة، فذهب إلى روما وانضم إلى اليسوعيين، إلا أن الفرنسيين لم يقبلوا استقالته، وأقنعوا البابا بروما بعدم قبوله. وهكذا عاد إلى الجزائر، وأنهى حياته سفيرا لفرنسا في اليابان.

كانت نجد قد ردت جيوش محمد علي، واستقلت بعد معركة تركي بن عبدالله آل سعود الشهيرة مع المصريين، وكان لابد من مراقبة أحوال نجد. لقد كان الفنلندي جورج أغسطس والين، المولود في خليج بوثينيا، قد درس العربية في مدرسة سان بطرس لمدة عامين، ثم تخرج طبيبا من معاهد المدينة. وقد وصل إلى القاهرة في عام ١٨٤٥م، حيث عاش كمسلم لمدة عام، ثم ذهب إلى الأزهر لتلقي العلوم. هناك تقرب منه أحد موظفي وزارة الخارجية المصرية، وعرض عليه أن يمول رحلته إلى الجزيرة العربية، لقاء تزويد الحكومة المصرية بالتقارير عن الأوضاع السياسية في نجد. أما الغطاء الذي اتفق أن يسافر تحته، فهو تجارة الخيول. وهكذا غادر القاهرة، وعبر

سيناء، ثم اتجه شرقا عبر الصحراء السورية، ومنها إلى الجوف بوابة النفود، ثم تقدم إلى حائل. قرر بعدها الذهاب إلى الرياض، لكن أمواله نفدت. فانضم إلى قافلة من إيران ذاهبة إلى مكة المكرمة، ثم عاد إلى القاهرة، ليقرر السفر بعدها مرة ثانية إلى الجزيرة غير أنه لم يوفق في الوصول إلى الرياض، فعاد إلى فنلندا في عام (١٨٥٠م)، حيث عين أستاذا للغات الشرقية. في جامعة هلسنكي فأمضى عامين في عمله ثم راح يستعد مرة ثالثة للسفر إلى الرياض، لكنه توفي قبل أن ينهي الاستعدادات لذلك (عطا الله، ١٩٩٤: ٧٢).

لم يكن من الصعب في بريطانيا، سيدة العالم في القرن التاسع عشر، العثور على من يمول رحلة حسنة التخطيط. وفي العام ١٨٥٢ عرض بيرتون خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية «بهدف إزالة ذلك العائق المعيب أمام المغامرة الحديثة، تلك البقعة البيضاء الضخمة، التي لا تزال على خرائطنا تغطي الأجزاء الشرقية والوسطى من شبه الجزيرة العربية» كانت الخطة الأساسية تقضي بالإبحار إلى مسقط، ومنها عبور الربع الخالي، حتى الوصول إلى مكة والمدينة. وقررت الجمعية تمويل الرحلة، لكن شركة الهند الشرقية رفضت السماح له بالقيام بها، بحجة أنها بالغة الخطورة، فقرر التوجه إلى المدينتين المقدستين مباشرة، يعود بعدها إلى الهند.

ويكفي أن نذكر أنه كان في أثناء وجوده في مكة والمدينة، يتغلغل في صفوف الحجاج الأفغان، للتجسس عليهم، والاطلاع على حقيقة مشاعرهم نحو الجيش البريطاني الذي كان يحتل الهند وما حولها. كان قد اقترب منه رجل هندي في مكة بعد أن ظن أنه أفغاني حقا، وأسر إليه بدافع من التعاضد الوطني، خبر الإعداد لانتفاضة شعبية ضد الإنجليز، في الأقاليم الهندية، فما كان من بيرتون إلا أن أسرع وأرسل برقية إلى القيادة البريطانية ينبهها إلى ما يعده الوطنيون الهنود ضدها (القباني، ١٤٢: ١٩٨٨).

وسط ذلك لم ينس بيرتون، أن يحلم بأن يمتد الحكم البريطاني إلى الجزيرة

العربية. ولذلك قدم اقتراحات كثيرة حول اكتساب البدو، وتحفيزهم في خدمة الإمبراطورية، حيث يمكن أن يشكلوا فرقة ممتازة من المشاة. وباختصار كان بيرتون إمبرياليا بلا حدود، يسعى لخدمة وطنه، ورفعة شأنه، وزيادة مستعمراته.

لقد وصف البعض بيرتون بأنه «الذي تنازعته مشاعر وأهداف كثيرة من الإمبريالية إلى الوصولية إلى الشغف بما رأى، غير أنه يضع دائما مصالح التاج البريطاني فوق كل اعتبار».

كان هناك ظاهرة مهمة في الوسط الإندونيسي، في أثناء حكم الاستعمار الهولندي لها. هذه الظاهرة تتمثل في أنه إثر كل عام، بعد موسم الحج وعودة الحجاج الإندونيسيين إلى جزر الهند الشرقية، تزداد المقاومة الوطنية للحكم الهولندي، ويزداد المتمردون على السلطة الهولندية، وتكثر الثورات في جميع الجزر الإندونيسية، وقد أدرك المستعمر الهولندي، أن هناك سرا ما، موجودا في مكة، يساعد على الثورة في إندونيسيا، لذا رأت الحكومة الهولندية أن تتعرف على واقع الحياة في مكة وتأثيراتها على الجزر الإندونيسية. وقد وجدت في أحد موظفيها ومدرسيها، وهو سنوك هورخرونيه الضالة المنشودة لتحقيق هذا الهدف، لذا أرسلت إلى مكة عام ١٨٨٥م الدكتور سنوك، وكانت الأهداف المعلنة لرحلته إلى مكة، التعرف على حياة المسلمين، وحقيقة الدين الإسلامي.

لقد كان هذا الهدف هو المعلن. أما الأهداف الخاصة فكانت دراسة أثر الحج على حركات التمرد الإندونيسية. لقد كانت الرحلة مخططة من قبل الحكومة الهولندية، وكانت بترتيب وتمويل من معهد تدريب الموظفين الهولنديين الذين يرسلون للعمل في إندونيسيا. وقد رتب لهذه الرحلة القنصلية الهولندية بجدة، وقد سافر سنوك بصحبة القنصل الهولندي، وسكن في القنصلية الهولندية بجدة قبل ذهابه إلى مكة. (السرياني ومرزا، ٢٠٠٣: ٢).

تكمن الأسباب الحقيقية لرحلة كورتلمون الفرنسي الأصل إلى مكة، في أنه سافر من أجل جمع معلومات عن الظروف التي يعيش فيها الحجاج المغاربة، القادمون من منطقة السيطرة الفرنسية. ودراسة الأثر الروحي الذي يحدثه الحج في نفوس الحجاج بعد عودتهم إلى بلدانهم. ويبدو أن أهداف كورتلمون لا تختلف كثيرا عن أهداف سابقه ليون روشيه، فكلاهما كان مكلفا بمهمة جمع أكبر قدر ممكن من الوثائق عن الحج والحجاج الجزائريين (جيل ـ جرفية كورتلمون: ٦: ٢٠٠٢-٧) لقد منح على عمله هذا وسام درجة فارس جوقة الشرف. ومما قيل في حفلة التكريم «لقد كلف بمهمة رسمية في الجزيرة العربية وقد أنجزها في ظروف صعبة ومحفوفة بالمخاطر بشجاعة ومهارة. وقد حمل من رحلته إلى مكة المكرمة وثائق ومعلومات ثمينة» (جيل ـ جرفية كورتلمون: ٢٠٠٢: ٢٥).

يقول كورتلمون: عرضت مشروع سفري إلى مكة على السيد كومبون حاكم الجزائر، فأبدى اهتماما كبيرا بالمشروع، خصوصا أن الحج كان يشكل إحدى اهتماماته، والفرص التي أتيحت للحصول على معلومات تتسم بالصدق والموضوعية عنه نادرة. إذ لم يتمكن أي فرنسي بعد ليون روش من الدخول إلى المدينة المقدسة. أي منذ سبع وخمسين سنة. علما بأن هناك قضايا كبيرة تتعلق بالنظافة الصحية، وقضايا تجارية، وقضايا أخرى كثيرة تهم الإدارة الجزائرية.

كانت الحكومات سواء المدنية أو العسكرية منذ عام ١٨٣٠م، مشغولة بإجراءات المراقبة والحماية والتنظيم المتعلقة بالحج. فمادام منع الناس من أداء الحج أمرا غير ممكن، فإنها ترى أن تنظيمه يجب أن يطور نحو الأحسن.

استقبل السيد كومبون مشروعي بترحيب كبير، محذرا إياي في الوقت نفسه من المخاطر والمفاجآت. وقد سلم لي جواز سفر باسم عربي، وقد رغب الحاكم العام في تكليفي بمهمة خاصة، لدى الشريف الأكبر، والسلطات الدينية في مكة المكرمة لكن على مسؤوليتي الكاملة.

ومن المؤكد أن المهمة المتواضعة التي كلفت بها، لا يمكن أن توازن بتلك التي كلف بها سابقي ليون روش. وقام بإنجازها خير قيام بكل حكمة وتعقل، لكن لا يهم، فأنا لا أرى شيئا أكثر تشريفا للرجل الفرنسي، من أن تكلفه حكومته للقيام بمهمة خارجية مهما كانت متواضعة. فتولد لدي إحساس عجيب بأن هذا الأمر يجب أن يكون مصدر تشجيع حتى للذين هم أقل شجاعة. وإذ لم أتحدث طويلا عن هذا الجانب من رحلتي، فليعلم القراء أنني مجبر على التحفظ على الموضوع. وأنه قد لا يكون من اللائق أن أبوح به لأحد.

ومع ذلك يمكنني القول: إنني كنت في هذه النقطة بالذات مقتنعا تمام الاقتناع بأني قمت بهذه المهمة خير قيام. وعند عودتي، وبعد أن تم توشيحي بوسام فارس جوقة الشرف برهنت لي حكومة الجمهورية على أنني قدمت شيئا مهما. وقد أنساني هذا التشريف ما عانيته من الأخطار (جيل ـ جرفية ـ كورتلمن، ٤٠: ٢٠٠٢-٤٥).

الخلاصة التي يمكن الخروج بها بعد هذا العرض أن الأهداف المعلنة لهؤلاء الرحالين تخفي وراءها أهدافا خاصة، متعلقة بالسيطرة والاستعمار. فقد تم تنظيم معظم هذه الرحلات في ظل حماية ورعاية الدول المستعمرة على نحو ما أشرنا سابقا، ومن هذا المنطلق فقد كان هدف كل الرحلات المتجهة إلى الشرق، تقديم المعلومات الجغرافية عن الأماكن التي لم يتم اكتشافها غربيا. وهذا يجعلنا ننظر إلى هذه الرحلات على أنها تمت داخل إطار السياسة الاستعمارية وبتمويل من جهات استعمارية، وتحت حماية استعمارية.

لقد أوضحنا أن عمليات التجسس، كانت جزءا لا يتجزأ من معظم هذه الرحلات الاستكشافية. ولا شك أيضاً في أن التنكر كان الطابع المميز لجميع هذه الرحلات، وقد قدمت هذه الرحلات معلومات وافية عن الأوضاع السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية والدينية، والفكرية لديار الإسلام. والخلاصة أن هذه الرحلات العديدة تندرج داخل دائرة العمل الاستعماري، حيث توظف الجهود الاستكشافية لخدمة المصالح الغربية في المشرق.

ثالثًا- التقييم الإسلامي لدخول الرحالة الغربيين إلى الديار المقدسة

لجأ هؤلاء الرحالةو لغرض الدخول إلى الديار المقدسة، إلى تأهيل أنفسهم للتلاؤم مع معطيات الشرق وعاداته وسلوكياته، خاصة الإسلامية منها، وأهم جوانب هذا التأهيل ما يلي:

- **التأهيل اللغوي**: أن القسم الأكبر من هؤلاء الرحالة كانوا يعرفون اللغة العربية، لا بل كان بعضهم يجيدها كتابة وقراءة وتحدثا. لقد كان التأهيل في مجال اللغة، يتم في المعاهد الاستشراقية في البلاد التي يفد منها هؤلاء. كما أن المدن القريبة من سواحل البحر المتوسط، كانت المنافذ المهمة التي يفد منها الرحالة إلى الجزيرة العربية، كمدينة الإسكندرية والقاهرة وبيروت ودمشق وحلب والقدس، حيث يتعلمون اللغة العربية، وشعائر الدين الإسلامي، ويذهب بعضهم للعيش في مضارب القبائل البدوية المحيطة بتلك المدن، لتعلم اللهجات البدوية.

فباديا مثلا قد تعلم العربية في أسبانيا، قبل أن يرحل إلى المغرب ثم الديار المقدسة، وهورخرونيه أقام في جدة ستة أشهر فتعلم اللهجة المحلية قبل دخوله إلى مكة. وبيرتون تعلم العربية في الهند، وبيركهارت عاش فترة في دمشق وحلب، قبل القيام برحلاته إلى الجزيرة العربية، والغرض من ذلك هو الحصول على التأهيل اللغوي إضافة إلى التأهيل الديني.

التأهيل السلوكي : لقد ارتدى كل هؤلاء الرحالة الملابس الشرقية، وانتظموا داخل إطار مجموعة من القيم والمبادئ، من خلال معرفة دقيقة بالعادات والتقاليد الاجتماعية والدينية، مع اهتمام شديد بتفصيلات الحياة الاجتماعية ودقائقها. ومعايشة تامة لأساليب الحياة الشرقية، والاختلاط بالناس والاندماج في طرق حياتهم، وتقليد تام لسلوكهم، حتى أصبح من الصعب التعرف على هويات هؤلاء الغربيين. ومما ساعد على ذلك القدرات اللغوية لهؤلاء، والفهم الدقيق لمجموعة النظم والمبادئ المنظمة لسلوك الناس، داخل المجتمع الشرقي.

لقد تعلم هؤلاء الشعائر الإسلامية والفقه والعقائد، وألمّوا بتاريخ القبائل وأنسابها، وظهروا كمسلمين في سلوكهم وعاداتهم، وارتدوا الزي الإسلامي، وتفننوا في أساليب التنكر وانتحال الأسماء الإسلامية.

فبارتيما تنكر بزي الحاج يونس المصري، وبيركهارت تلقب بالحاج عبدالله، وباديا كنى نفسه بعلي باي العباسي، وبيرتون تزيا بزي حاج مسلم أفغاني، حتى أنه دهن جلده بعصير الجوز، وعرض نفسه للشمس طويلا ليبدو أسمر اللون، شاحب البشرة مثل الأفغان تماما. وبيركهارت كان يتمرن على قطع مسافات طويلة سيرا على الأقدام، تحت حرارة الشمس، وهو مكشوف الرأس، ويفترش الأرض، ولا يأكل إلا الخضار، ولا يشرب إلا الماء. وقد كان ذلك في لندن عندما كان يعد نفسه لهذه المهمة، بعد أن درس في جامعة كمبردج اللغة العربية والكيمياء والطب (بوركهارت، ١٩٩٢: ٦).

هناك ثلاثة أساليب اتبعها هؤلاء الرحالة كي يتسنى لهم الدخول إلى الديار المقدسة، وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة. أما الأول: فهو التنكر بالزي الإسلامي، لإتمام مهمة الحج. والثاني: هو إعلان الإسلام الظاهري. أما الثالث: فهو إعلان الإسلام فعلا وأداء فرائض الحج كمسلم يؤدي إحدى الفرائض الدينية.

ففي الحالة الأولى، وهي حالة التنكر، فالموقف الإسلامي يعتبرها عملية خداع قام بها هؤلاء، لكي يتسللوا إلى الأراض المقدسة، ويعايشوا المسلمين في أداء فريضة الحج، ويمارسوا نسك هذه الفريضة، حتى يصفوها وصفا قائما على أساس من الفهم. وهذا حال بارتيما ولي بلانك وفيناتي وغيرهم.

والموقف الإسلامي من هذا الخداع موقف واقعي، يتعامل مع الحادثة في إطارها الشرعي والقانوني، حيث يوجد أمر بعدم السماح لغير المسلمين بدخول الأراضي المقدسة، وهناك علامات للمنطقة المحرم دخولها. كذلك هناك عقوبات لمن لا يلتزم

بهذه الأوامر، الصادرة عن السلطات الإسلامية. ويمكن القول إنه لو قبض على أحد هؤلاء لتمارى بعملية الخداع، بإعلان أنه مسلم، وربما نطق بالشهادة أمام المحققين معه، ليخلص نفسه من هذه الأزمة، وبإعلان الشهادة لا يستطيع أحدا أن يتعامل معه على أنه ليس مسلما.

وفي حالة إعلان الإسلام الظاهري من أجل إتمام الحج، فالموقف الإسلامي يصبح أكثر صعوبة، إذ ليس في استطاعة أحد أن يكشف صحة إسلام هؤلاء، فالدخول الظاهري في الإسلام، يتم من خلال إعلان الشهادة، والالتزام الظاهري بأداء الفرائض والواجبات الإسلامية، وخاصة الصلاة والصوم والحج، وكلها يمكن أن تؤدى بشكل ظاهري، وبدرجة من الإتقان، لا يمكن معها كشف عدم إسلام صاحبها.

ومن الجدير بالذكر أن القسم الأكبر من هؤلاء الرحالة أتقن الظهور في شكل مسلم، ولم يشك أحد في هويتهم الدينية. ولو حدث مثل هذا الشك فهناك سلاح النطق بالشهادتين، لإبعاد الشكوك، يضاف إلى ذلك أن معرفة هؤلاء الجيدة بالإسلام، والسلوك الإسلامي، والعادات والتقاليد الإسلامية، تمكنهم من إقناع أي شاك في هويتهم الدينية. فالتظاهر بالإسلام هو السلاح الجاهز للخروج من أية أزمة من هذا النوع.

أما الحالة الثالثة، فهي كون إعلان الإسلام كان حقيقيا لا شكليا، كما قدم باديا نفسه للوسط الإسلامي، بأنه مسلم حقيقي، اعتنق الإسلام عن إيمان وعقيدة، أو كما فعل سنوك هورخرونيه حينما أعلن إسلامه الحقيقي في جدة، قبل أن يدخل إلى مكة، وذلك أمام القاضي الشرعي والشهود. ودخل مكة على اعتبار أنه أحد المسلمين، الذين يريدون التزود من مركز الإسلام الروحي في مكة المكرمة. وتجابهنا هنا مشكلة الردة على الإسلام، بعد تمام رحلة الحج والعودة إلى الغرب، ونشر أخبار الرحلة وأحداثها، من منطلق أنها رحلة مستشرق أو مستكشف مغامر، اتخذ فيها

الوسائل التي تمكنه من إتمام الرحلة، ومنها إعلان الإسلام المؤقت، والعودة إلى الدين السابق، بعد إنجاز المهمة المطلوبة.

ومن الجدير بالذكر أن بعض هؤلاء استمر بتمثيل دور المسلم حتي بعد انتهاء الرحلة، مثل سنوك هرخرونيه الذي بقي (١٧) عاما في أندونيسيا، يمثل دور المسلم الحق، حتى أن الرسائل التي كان يرسلها له أصدقاؤه في مكة يخاطبونه فيها «بالأخ العزيز في الله».

يرى البعض أن التسلل إلى الديار المقدسة من قبل هؤلاء الرحالة ينطوي على عمل غير أخلاقي، لعلم هؤلاء المسبق بأن دخول المدينتين المقدستين محرم على غير المسلمين. لقد استغل هؤلاء الإسلام استغلالا سيئا من أجل تحقيق أهدافهم، وهذه النقطة تضاف إلى سلسلة من الأعمال المعبرة عن الأزمة الأخلاقية في مسيرة الاستشراق، ويمكن في هذا المجال أن نحصي عشرات السلوكيات غير الأخلاقية، من بينها سرقة المخطوطات، وجمع المعلومات للجان الاستعمارية، إضافة إلى الإعلان الظاهري للإسلام، للتسلل إلى بلاد المسلمين (حسن، ٢٠٠٤: ١٤٢١ - ٤١٨) وفي هذا المجال نستحضر النقدالذي قدمه إدوارد سعيد لهؤلاء الرحالة من حيث ارتباطهم بالحركة الاستعمارية. وفي تصور الشرق ودرسه تصورا استعماريا عرقيا فوقيا متجذرا في القوة واتحاد القوة بالمعرفة (سعيد، ١٩٨٤: ٦).

رابعاً- تقييم كتابا هؤلاء الرحالة

يقول رالي يمكن أن نقسم الحجاج النصارى إلى مكة إلى ثلاث فئات: الأولى تمتد من بارتيما إلى بيتس. أما الثانية فالمتحمسون للعلم، وتشمل باديا وسيتزن وبيركهارت وهورخرونيه. أما الثالث ففئة المولعين بالمغامرات أو حب الاطلاع مثل فون مالتزان، وبيكنيل وكين كورتيلمو.

ينتمي بيرتون إلى الفئتين الأخيرتين. أما والين فينتمي للفئة الأولى. أما روشيه

فمن الصعب تصنيفه. هذه المجموعة المتنافرة من الرجال كرست نفسها لموضوع واحد. إنها صرخة بعيدة من بيتس الذليل، إلى باديا الكريم، ومن بيركهارت العلمي، إلى كورتيلمو الشاعري. ومن هورخرونيه الناكر لذاته إلى روشيه المتحدث عن سيرته الذاتية. ومن وايلد الغامض، إلى بيرتون صاحب الشهرة العالمية. ويمكننا تتبع هذه المفارقات في السجلات المدونة التي مازالت باقية: بين تكديس بيركهارت للحقائق، وقصص كين الجذلة، وما يمكن قوله إن أعضاء هذه الصفوة المختارة، المختلفة في الزمان والمكان والهدف والسجية كلهم متحدون في اشتراكهم في مغامرة واحدة، هي النفاذ إلى أقدس بقاع العالم الإسلامي وهو مكة. لقد أصبحت معلومات هؤلاء الرحالة من أهم أسباب انتعاش الكتابات التاريخية والجغرافية عن الديار المقدسة. وقد عكست كتابات هؤلاء بما حوته من أحداث تاريخية وجغرافية واقتصادية وسياسية وأثرية، الحياة العامة التي كانت في مركز عواصم الإسلام الأولي مكة المكرمة.

ومن الإنصاف القول إن كل معني في تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها سيستفيد من كتابات هؤلاء الرحالة، لا من حيث شمولها لمعلومات ودراسات تاريخية فحسب، بل لأنها تبسط أمام القارئ العربي المعني بتاريخ الجزيرة ميدانا واسعا، ممهد الطرق واضح المعالم.

هذه حقائق لا سبيل إلى إنكارها، أو التغاضي عنها، غير أن الدوافع وراء هذه الأعمال الضخمة بحاجة إلى وقفة تأمل وروية. لقد كان للقوم دوافع عديدة تخدم مصالحهم، لقد كانت دوائر الاستشراق التي مولت معظم هذه الرحلات، لها صلاتها القوية مع وزارات الخارجية وشؤون المستعمرات مع الدول الأوروبية بهدف تسهيل مهمة المستعمر في البلاد المستعمرة، وكان لها صلات قوية بحركات التنصير في العالم الإسلامي، ولا يكون ذلك إلا بدراسة ماضي الأمم وتاريخها، لمحاولة الوصول إليها من أقرب الطرق وضربها في المكان الموجع لها.

إن هناك جهدا بذله هؤلاء الرحالة، بغض النظر عن دوافعه، فإذا نحن طوينا

هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية في البحث عن الحقيقة الموضوعية، مع أن نشر هذا الجهد، لا يتضمن الموافقة عليه، والرضى عن جميعه. إن تراثنا جزء من الحضارة الإنسانية، التي هي ملك لنا، كما هي ملك لغيرنا. ولهذا لا نستطيع أن نمنع أحدا أن يكتب عنا. كما أننا لا نستطيع أن نضع لهؤلاء الخطوط العريضة التي نرتئيها لأنفسنا عند بحثنا في تراثنا. فهم لهم منطلقات فكرية مختلفة تماما عن منطلقاتنا. والقارئ العربي كثيرا ما تعتريه حالة من الشك والريبة، حيال كتابات الغربيين عن العرب، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة (الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها) لا تتفق مع المنطق القويم في شيء، والحق يجب قبوله، أيا كان مصدره، والباطل لا يتوقف رفضه على معرفة مصدره، والغربيون بحكم بعدهم عنا، وجهلهم لأحوالنا في الماضي، تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ، لا ينبغي أن تكون حائلا بيننا وبين المعرفة.

لقد ترك هؤلاء الرحالة على حد تعبير بعض الكتاب جبلا من الوثائق والرسوم والمفكرات والخطابات واليوميات، لم تكن كلها صحيحة ودقيقة، وكانت كلها بالتأكيد من وجهة نظر غربية. ومن رؤية غربية للأمور، غير أنها في غياب الرحالة العرب في هذه المرحلة، خاصة خلال القرن التاسع عشر، والذي سبقه، كانت هذه المعلومات شريط الرسوم الوحيد، الذي ترك لنا عن الحياة العامة في الديار المقدسة، وليس لمؤرخ أو باحث أن يدرك طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية والمعيشية إلا بقراءة تلك الأوصاف الدقيقة للبيئة البشرية والطبيعية التي كانت قائمة آنذاك (عطا الله، ١٩٩٤: ١٦).

لقد مثل هؤلاء الرحالة عصورهم التي عاشوها، فقد تزامنت رحلة بارتيما، وهي أول رحلة قام بها أوروبي عام (١٥٠٣م) إلى مكة المكرمة، مع رحلة فاسكو دي جاما إلى الهند، وإذا كانت مهمة دي جاما قد انتهت باكتشاف الطريق البحري للهند، فإن مهمة بارتيما كانت أكثر تعقيدا. فقد كان مكلفا بوصف عادات الشعوب

التي يمر بها في طريقه إلى الهند، وكتابة تقارير عن جيوشها، وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية، خاصة ذات القيمة في التجارة العالمية.

لقد خصص بارتيما فصلا من فصول رحلته، أطلق عليه «بلاد العرب الصحراوية» وصف فيه الطريق من دمشق إلى مكة، ثم تحدث عن المدينة المنورة، ثم وصف الرحلة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وقدم بعض المعلومات عن التجارة في مكة وجدة ثم وصف الحج (رحلات بارتيما ١٩٩٤: ٢٢).

لقد كان بارتيما أول نصراني يصل إلى مكة، ويكتب عن أحوال الديار المقدسة في مكة والمدينة، وقد اتسمت كتاباته بروح التحامل والتعصب، كانت الكلمة العالقة بشفتيه دائما «قذر» (خيام البدو قذرة.. هذا النمط من الرجال القذرين.. مكة مدينة ملعونة... إلخ). ولم يكن مهتما بوصف الأماكن، حيث لا نجد وصفا دقيقا منظما لمكة والمدينة، فقد صب اهتمامه على الأشياء الغريبة (وحيد القرن في مكة).

وكذلك نجد المبالغة (هناك عشرون ألف متسول في مكة) وإظهار البطولة والشجاعة الشخصية واضحا في مغامراته «لقد قتلنا من البدو ١٥٠٠ نفس، ولم نفقد سوى رجل وامرأة» وكذلك غرام النساء به حيثما حل وارتحل. والخلاصة أن أوروبا عرفت مكة المكرمة والمدينة المنورة من خلال أول رحالة أوروبي وطئت أقدامه تلك الديار. وقد استطاع أن ينفي ما كان يتردد في أوروبا من أن قبر النبي ﷺ معلق بين السماء والأرض في مكة.

إذا كان الرحالة بارتيما ذهب إلى مكة، كأحد حراس قافلة الحج، فإن جوزيف بتس زارها بصفة عبد مع سيده، ونرى أن رحلته تمثل انطباعات رجل إنجليزي، مليء بالتحامل، وعدم الثقة في الأجانب، وربما يكون ذلك لسوء المعاملة التي لقيها من أسياده المتعددين في أثناء عبوديته. ومع إصراره على التظاهر بالإسلام، إلا أنه لم يرتد عن دينه السابق.

لقد وصف بتس رحلة الحج من الجزائر بحرا إلى الإسكندرية، ومن هناك

بمحاذاة النيل إلى القاهرة، ثم عبر الصحراء إلى السويس، ثم استقل السفينة إلى جدة. وتحدث عن مشاهداته في مكة، ولاسيما السيل الذي اجتاح المدينة المقدسة، والحياة في أثناء شهر رمضان الذي أدركه هناك، وتحدث عن القوافل الأربع التي تأتي إلى مكة في موسم الحج، ثم وصف الحج وهاله موقف عرفات «إنه مشهد يقطع القلب، أن ترى آلافا مؤلفة من الناس، برؤوس حاسرة، ووجنات مخضبة بالدموع، وأن تسمع آهات وشهقات، والجميع يتوسلون بإلحاح، ليغفر الله ذنوبهم، وهم يعطون الوعود بتجديد حياتهم».

لقد كانت أوصاف بتس دقيقة للمشاهد التي زارها، لكنه لا يخلو من التحامل على الدين الإسلامي. ومن الجدير بالذكر كما يقول بدول «إن كتابه بقي غالبا غير مقروء كلية» (بدول ص ٢٩).

في الوقت الذي زار بتس مكة المكرمة كعبد يخدم سيده فإن باديا (علي باي العباسي) قد دخل مكة كأمير من سلالة الخلفاء العباسيين. ولقد كانت مظاهر البذخ والترف، التي أحاط بها هذا الرحالة نفسه، والتي كلفت الجهة التي يقدم خدماته لها كثيرا، غير أنها قربته من علية القوم في الشوق العربي. فقد أصبح هذا الرحالة صديقا حميما لسلطان المغرب، وفي طريقه إلى رحلة الحج ألح عليه حاكم طرابلس البقاء معه، وفي القاهرة توقف قليلا، حيث قابل محمد علي باشا. وفي مكة سكن في بيت مجاور لقصر الشريف أعد له مسبقا. وقد استقبله شريف مكة، ودعاه للاشتراك في غسيل الكعبة، وأهداه قطعة كبيرة من كسوتها، وعين له مرافقا يصاحبه في تنقلاته (بدول مرجع سابق ص ٣٠).

لقد كان باديا من خلال معرفته العلمية واللغوية وأسلوبه المنظم، أول من أعطى الغرب وصفا منظما عن مكة. وهو أول من وصف تجارتها، ووصف أزهارها ونباتاها، وحتى أنه أول من حدد موقعها بدقة. وقد وجد أن أجزاء كبيرة من المدينة قد تحولت إلى خرائب، وأن سكانها قد تضاءل عددهم من مائة ألف إلى ستة عشر

ألفا فقط، وكان يعتقد أنه لا توجد مدينة ينقصها حرفيون كمكة. فلم يكن هناك من يصلح البنادق، ولا من يصنع الأقفال، ولا يوجد أحد من الأساكفة ومن المستحيل (على حد قوله) أن تشتري مصحفا مكتوبا بخط جيد أو حتى خالٍ من الأخطاء (بدول، ص ٣١).

وفضلا عما ذكرنا، فقد كان لكتاب علي باي العباسي بعد تاريخي مهم، فقد قدر لهذا الرجل الأسباني، أن شاهد استيلاء السعوديين على مكة المكرمة، عام (١٢١٧هـ/ ١٨٠٦م) ودخول الإمام سعود وجيشه إياها. وأن يكتب وصفا للجيش وللتغييرات التي أحدثوها. وشعور الناس نحو هؤلاء الفاتحين الجدد، ويمكن وصف ملاحظات باديا في هذا الخصوص بالدقة والحياد. وقد ذكر بعض المعلومات التي لم يدونها أحد من كتاب المصادر التاريخية القليلة لتلك الفترة.

قدم سيتزن Seetzen (حاج موسى) عام ١٨٠٩ ـ ١٨١٠م معلومات قيمة عن المدينتين المقدستين، وخاصة الأوصاف الدقيقة للمسجد الحرام، والمسجد النبوي الشريف، وقدم ملاحظات دقيقة عن مكة خلال موسم الحج، وعلى الرغم من أنه لم يكن رساما، فقد نجح في وضع خارطة لمكة وما حولها، ومخططا للمسجد الحرام، مع ستة عشر رسما لأجزائه المنفصلة، وقام بنقد كل الخرائط والرسومات الموجودة آنذاك، بما فيها رسومات الرحالة نيبور. كما أنه أجرى بعض المراقبات الفلكية من منزل أحد أصدقائه في مكة، إلا أن وفاة سيتزن المفاجئة، وخسارته لأوراقه التي سرقت منه، كانت في صالح الرحالة السويسري بيركهارت، الذي يُعدّ كتابه أساس كل معرفة دقيقة عن مكة.

لقد وصف بيركهارت الحياة في المدينتين المقدستين وصفا دقيقا، فأعطى معلومات مفصلة عن المنازل والدكاكين والشوارع والأسوار ومصادر المياه والمقابر. كما وصف تركيب السكان وعاداتهم وتقاليدهم وحرفهم، وطرائقهم في المأكل والملبس، وأساليب التعامل، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وعلاقات

الحجاز بأقاليم الجزيرة والهند ومصر. وقد وصف بيت الله الحرام، ومشاعر الحج، ومسجد الرسول ﷺ وأماكن الزيارة في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة. كما وصف الطرق بين المدن، بما فيها من محطات استراحة وآبار، ووصف الجبال وأنواع الصخور والوديان والأشجار. كما وصف أيضاً طريق الحج المصري والشامي واليمني والطرق بين المدينة المنورة والقصيم.

وهناك بعد تاريخي مهم، برز في كتابات بيركهارت، الذي قدر له أن يكون شاهد عيان، لانحسار النفوذ السعودي عن الحجاز، ومجيئ قوات محمد علي. وأسر محمد علي للشريف غالب. وقد سجل ملاحظات دقيقة (كما فعل باديا من قبل) عن طبيعة حكم السعوديين، ومشاعر الناس نحوهم، حاضرة وبادية، سواء أكانوا مناصرين لهم أم مناوئين. كما سجل ملاحظات مهمة عن طبيعة حكم محمد علي للحجاز وحملاته، وسلوك جيشه، وعلاقتهم بأهل البلاد (بيركهارت، ١٩٩٢: ٨-٩).

يعترف كل من زار المدينتين المقدستين بعد بيركهارت، بأهمية كتاباته عن المدينتين المقدستين، حيث يقول بيرتون (إنه لا يمكن الزيادة على كتاباته. فكل صفحة من صفحات كتابه مليئة بالحقائق الدقيقة. فقد تتغير ظروف الشكل الخارجي للحج، من سنة إلى أخرى، لكن الأوصاف الأساسية لشعائر الحج كانت كاملة عنده، والسبب هو معايشة بيركهارت لفترة الحج، ومشاركته في أداء الشعائر، خلال هذا الموسم. غير أن بيركهارت لم يسلم من الوقوع في بعض الأخطاء، التي كشفها من جاء بعده، أمثال سنوك هورخرونيه، الذي أنكر على بيركهارت قصور أهل مكة في الحضارة والعلم، بصورة مبالغ فيها حيث يقول «إنه لمما يؤسف له أن رجلا عالما مثل بيركهارت، لم يذكر شيئا عن النهضة العلمية في مكة، لا بل نراه يصور قصور أهل مكة في هذا المجال بصورة مبالغ فيها، وهذا لا شك سببه أن مكة تبدو للحجاج والزوار في موسم الحج، بصورة مختلفة تماما، عن أولئك الذين يستقرون فيها،

ويضيف هورخرونيه أنني أستطيع أن أكتب صفحات مطولة عن الكثير من مواطن الزلل في كتاب بيركهارت، غير أنني من جهة أخرى آمل أن يصدقني القراء، إذا قلت إنني قرأت كتاب بيركهارت قراءة شاملة، لولاها لما تمكنت من كتابة كتابي هذا، ولهذا فإنني أبدي تقديري واحترامي الشديدين لسلفي السابق، على الرغم من وجود بعض الأخطاء التي استطعت أن أكتشفها في عمله الممتاز (هورخرونيه ١٩٩٠ : ٣٥٩) والخلاصة أن شخصية بيركهارت وأعماله تضعانه عاليا بين الرحالة المشهورين في التاريخ.

يعد بيرتون الرحالة الإنجليزي الذي وصل إلى المدينة عام ١٨٥٣م، لأداء فريضة الحج في مكة، من أكثر الرحالة نشاطا وحيوية وأكثرهم إنتاجا. لقد خصص بيرتون الجزء الثالث من كتابه «رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز»، للحديث عن الديار المقدسة. فقد كتب تسعة فصول من كتابه البالغ (٣٤) فصلا، (الفصول من ٢٦ ـ ٣٤) عن رحلته إلى مكة المكرمة والطريق إليها، واصفا بالتفصيل مناسك الحج التي خصص لها أربعة فصول (شعائر يوم التروية، شعائر عرفة، يوم النحر، أيام التشريق الثلاثة) وتحدث في الفصول الأخرى عن المدينة، ووصف الطريق الذي سلكه للوصول إلى مكة، ثم تحدث عن الحياة الاجتماعية والتقاليد، والأماكن التي يقصدها الزائرون للتبرك. إن ما كتبه بيرتون يعتبر مليئا بالمشاهدات المفصلة والمعلومات المسهبة. ويرى بعض المؤرخين أن بيرتون لم يضف كثيرا للمعرفة الإنسانية، ولكنه نقل للأوروبيين الجو السائد في الجزيرة العربية، وروى القصة بشكل أفضل، وأسلوب مشوق أكثر مما فعل سابقوه (بدول، ص ٦٢).

والناظر في فصول كتاب بيرتون المتعلقة بالشعائر الدينية عند المسلمين، يرى أنه قد تناول عقائد المسلمين باحترام كامل. وقد يكون من المفيد أن نورد بعض التعبيرات الدالة على ذلك:

يقول بيرتون واصفا اصطفاف المسلمين حول الكعبة لأداء الصلاة: «لقد رأيت

شعائر دينية في بقاع كثيرة، لكنني لم أر أبدا ما هو أكثر وقارا وتأثيرا مما رأيته هنا» (الفصل ٢١). ويقارن بين المناسك في مكة، والمناسك في ديانات أخرى فيقول: «وهنا -في مكة- لا نرى شيئا مسرحيا مصطنعا. ولا نرى لمناسك الحج لباسا كلباس الأوبرا، بل إن كل شيء هنا بسيط ومؤثر، ويملأ العقل بخشية الله» (الفصل ٣).

ويقول في موضع آخر من الفصل (٣٢) «لا أستطيع أن أتحدث عن مناسك الحج عند المسلمين بعداء. فالشعائر الدينية المتعلقة بالكعبة -وهذا حقيقي- تقلل كثيرا من كل ميل للوثنية، لكن أين هي الأمة، سواء في الشرق أو الغرب- التي استطاعت أن تخلص عقائدها من بقايا الوثنية القديمة.... فالفكر الديني الإنجليزي مليء بالطفيليات الوثنية. أما في مكة فحتى البدوي البسيط، يعلم عند طوافه بالكعبة، أنه لا يعبدها، وإنما يفعل ذلك أسوة بخليل الرحمن» (رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ج ٣، ص ٧-٨).

لقد وصف بيرتون الوقوف بعرفة بقوله «لقد رأيت شعائر دينية في بلاد كثيرة ولكن لم أشاهد في حياتي بتاتا مثل تلك الشعيرة برهبتها وعظمتها» (بدول ص ٦٢).

لقد تحدث بيرتون عن بعض الأفكار التي تؤدي إلى تخلف العالم الإسلامي، منها سهولة الحصول على الغفران، أي ربط المغفرة بكلمة، أو عمل بسيط، مما يساعد على انتشار الفساد. ومن ذلك قول القائل «طوف واسع واعمل السبعة» أي مادمت تطوف حول الكعبة، وتسعى بين الصفا والمروة، فلا خوف عليك، حتى لو ارتكبت كل أنواع الفساد، لكن بيرتون ذا النظرة العالمية يعود فيقول، إن ذلك يشبه ما يحدث لبعض المسيحيين بعد الاعتراف، إذ يتأهبون لارتكاب معاصي جديدة، وهناك من يفكرون في المعاصي أيام الاثنين، بينما هم منهمكون في صلاة الأحد».

ويجزم بيرتون أن الإكراميات والبخشيش (البقشيش) واعتقاد بعض الناس أن

من حقهم الحصول علي مال دون مقابل، أو أنهم أهل لذلك دون عمل حقيقي، من أهم أسباب تخلف العالم الإسلامي مؤخرا. بينما نجد العمل والإنتاج والإيمان، كل ذلك جميعا كان محور تقدم العالم الإسلامي في عصوره الزاهرة. (رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ص ٩).

والخلاصة أن بيرتون وصف رحلات عديدة قام بها إلى كل قارات العالم ماعدا أستراليا. وعن أفريقيا وحدها كتب ثلاث عشر جزءا، تعداد صفحاتها (٤٦٠٠) صفحة. أما الجزيرة العربية فقد ظلت كما يقول «الأرض التي تولع بها قلبي» (بدول ص ٥٤) ولا شك في أن أسلوبه الجميل، أضفى شيئا من الحيوية على أوصافه للأماكن، ويكفي أن نذكر للتدليل على ذلك وصفه للمدينة المنورة في ٢٥ من يوليو عام ١٨٥٣م حيث يقول: «عندما نظرنا إلى المشرق، وجدنا الشمس قد بزغت في الأفق ذي التلال المنخفضة، المكسوة بشجيرات صغيرة، ولكن ضباب الصباح جعلها وكأنها أشجار شامخة، أما الأرض فكانت مغطاة بنباتات ظهرت وكأنها مزيج من لوني البنفسج والذهب، وامتد أمامنا سهل رحب، تحده هضبة نجد، وإلى اليسار ارتفع جبل أحد المشهور، واحتضن في سفحه مجموعة من الشجيرات الخضراء، وقبة بيضاء أو اثنتين. أما إلى اليمين فقد انتشرت خطوط عريضة بلون أرجواني فاتح، من الضباب الكثيف، مع طراوة منعشة. ومن خلاله تسربت أشعة الشمس، شمس الصباح لتنشر نورها الخافت على بساتين النخيل، وحدائق قبا، التي برزت بخضرتها الزمردية فوق السهل الرمادي» (بدول ص ٦٠).

في عام (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م) حصل سنوك هورخرونيه على إجازة دراسية للسفر إلى الجزيرة العربية، ليتعرف من خلالها على حياة المسلمين، وحقيقة الدين الإسلامي. وقد أكمل هورخرونيه خلال إقامته في مكة، كتابه المشهور عن مكة في جزئين، الأول لتاريخها، والثاني وصف حياة أهلها الاجتماعية وصفا دقيقا ومفصلا، وأبرز تأثير مكة كرمز للإسلام في العالم الإسلامي، وتطورات المسائل

الدينية والعادات وتداخل هذه في تلك. وبهذه الميزات فاق هورخرونيه جميع زوار مكة من الغربيين ممن كتبوا عنها.

ومن المعروف أن هورخرونيه من كبار المستشرقين، وهو أشهر مستشرق هولندي معروف في الجزيرة العربية وأندونيسيا لنشاطه في هذين البلدين، وقد عدّ عميد العربية بعد جولدزيهر، وفي طليعة رواد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوروبا، وهو من مؤسسي علم الإسلاميات الحديث، وكان أستاذا للدراسات العربية في جامعة ليدن من عام ١٩٠٦م إلى عام ١٩٢٧م.

إن كتابات هورخرونيه عن مكة تتمثل في جزئين: الأول عبارة عن دراسة مفصلة لتاريخ مكة وحكامها، وقد قسم المؤلف هذا القسم إلى أربعة أقسام، بحث في الأول موقع مكة الجغرافي وتضاريسها وأوضاعها الطبوغرافية، وناقش في الفصل الثاني تاريخ مكة في العهد الإسلامي، ثم عرض تسلسل تاريخي لأهم الأحداث في مكة في الفصل الثالث، وناقش الأوضاع السياسية العامة في مكة عام ١٨٨٦ ـ ١٨٨٧م، في الفصل الأخير من المجلد الأول. أما الجزء الثاني فقد قسمه المؤلف إلى أربعة أقسام أيضاً.

١- الحياة العامة في مكة، وتشمل الإدارة، وحياة السكان، وما يزاولونه من أعمال تجارية، وحرف متنوعة، وما يقدمونه لخدمة الحجاج، ومختلف الخدمات التي تقدمها المدينة المقدسة لزوارها.

٢- الحياة العائلية وبناء الأسرة، وتشمل مراسيم الزواج من خطبة ومهر، ومراسيم التسمية والختان، ودراسة الأعياد والاحتفالات الدينية والاجتماعية.

٣- الناحية العلمية، ودرس فيها الكتاتيب، وطرق التدريس في الحرم، وموضوعات الدراسة، والمدارس الفكرية في العالم الإسلامي، وبين خصائص التعليم في المؤسسة التعليمية الكبرى الموجودة في المسجد الحرام.

٤- السكان: في هذا الفصل تحدث عن سكان المدينة المقدسة بمختلف أجناسهم وألوانهم وأماكن هجرتهم، وخص بالذكر السكان القادمين من جزر الهند الشرقية.

وقد ألحق سنوك مع المجلدين الكبيرين أطلسا فريدا، وضع فيه الكثير من الصور والرسوم التي تظهر نواحي شتى من مظاهر حياة المدينة المقدسة.

من خلال المعلومات التي قدمها سنوك هورخرونيه للعالم الغربي عن المدينة المقدسة، اعتبره البعض رائد الدراسات الاجتماعية في مكة، حيث تفوق على جميع من سبقوه في هذا المجال، ممن كان اهتمامهم الأكبر في وصف مشاهد الحج المختلفة. ومن الجدير بالذكر أن سنوك لم يحضر موسم الحج في مكة.

لقد كان من ملاحظات هورخرونية الدقيقة على الحركات الفكرية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في عموم أوروبا والشرق، أنها كانت في أوروبا بعيدة عن الروح الدينية، وأن روح الشرق وحضارته لم تقم إلا على الدين. وقد بين سنوك أن الغربيين سادت بينهم معلومات خاطئة عن الإسلام وحقيقته. وقد رد في هذا الصدد على كثير من الغربيين الذين كتبوا عن الإسلام.

لقد انتقد هورخرونيه بحرارة أولئك الرحالة الأوروبيين الذين يقيمون في الشرق أياما معدودة، ويصدرون أحكاما سطحية وساذجة، لا تعتمد على المشاهدة، وإنما على ما هو موجود في بطون كتب المستشرقين ممن سبقهم، وبهذا تتوالى الأخطاء باستمرار في كتب هؤلاء. ولعل سنوك أول من أظهر للغرب حقيقة الرق في الإسلام، فقد وجد في عصر كانت بريطانيا والدول الأوروبية تشن حملة لتحرير الرقيق. وقد أظهر لهؤلاء أن الرقيق في الشرق يعامل معاملة الأب والأم والأخ والأخت، ولو أن مفهوم الرق الغربي كما هو عليه الأمر عند المسلمين، لما احتاجت أوروبا إلى كل هذا العناء بهذه الخطوة التي خطتها.

إن هذه الأمور التي بدا فيها سنوك موضوعيا منصفا منافحا، يقابلها أمور أخرى بدا فيها متحاملا وغير منصف، فقد صب جام غضبه على علماء مكة، الذين يثيرون الفتن والقلاقل لدى شعوب جزر الهند الشرقية الهولندية (أندونيسيا)، التي كانت خاضعة لهولندا، آنذاك نتيجة دعوة السكان في مواسم الحج للثورة على المستعمر. وكان يرى أن الدين يجب أن يبقى مقصورا على العبادات فقط، وكان يرى أيضاً أن الشريعة الإسلامية مستحيلة التطبيق لأنها مثالية.

وعلى الرغم من كل ذلك يعتبر كتاب مكة بجزئيه سفرا قيما مليئا بالحقائق التي تمثل واقع حياة المدينة المقدسة في تلك الفترة من تاريخها.

سنقف أخيراً عند رحلة جيرفاس كورتيلمو (الحاج عبدالله) لنختم بها تقييمنا لما كتب عن مكة. ولكتاب كورتيلمو سمتان أساسيتان هما:

١ - أن هذا الكتاب لا يتضمن أيا من الأخطاء الكبيرة، التي تمتلئ بها كتب بعض الرحالة الآخرين. كما أنه مكتوب بروح ممتازة، ملأى بالتعاطف والاحترام، الذي يكنه صاحبه للإسلام، وهذا أمر نادر.

٢ - أن نص هذه الرحلة يختلف عن معظم نصوص الرحالين الأجانب الآخرين، الذين كتبوا عن الجزيرة العربية، وهذه الخصوصية مردها أن صاحبه فنان تصويري، سعى إلى الارتقاء بالصور المكتوبة، إلى مستوى الصور التي تلتقطها الكاميرا، مركزا على الجزئيات والتفاصيل الصغيرة، مازجا الواقع بالخيال، مضيفا على كتابته ألوانا متعددة ليكون نسخة المكتوب أشبه بنسخة أخرى للصور التي التقطها بالعدسة.

لقد راود المصور الفرنسي - الجزائري حين استنفد كل البلدان ذات المنافذ السهلة. فقد سافر من طنجة إلى القسطنطينية، وكانت ثمرة أسفاره خمسة مجلدات. وقد تلهف أن يجعل مكة والمدينة موضوع المجلد السادس.

تحدث كورتيلمو عن تفصيلات رحلته إلى الأماكن المقدسة، منذ انطلاقه من مدينة الجزائر إلى مدينة جدة، ثم إلى مكة المكرمة والإقامة فيها، ومحاولة الذهاب إلى المدينة، إلا أن ذلك لم يتحقق له فغادر جدة إلى السويس ثم فرنسا. وقد اقترن مع الوصف العام للرحلة، سلسلة كبيرة من الصور، التي تظهر تفصيلات دقيقة عن الحياة العامة والناس والأماكن المختلفة، مما يجعل الصور هي عماد الموضوع، والنص عبارة عن شرح لدقائق هذه الصور، التي اعتبرت سبقا صحفيا لذلك الرحالة.

والخلاصة أن مادة هذه الرحلات تحتوي معلومات كثيرة. ويمكن أن نقسمها إلى نوعين من الكتابات.

الأولى تندرج في أدب الرحلات التي تنطوي على وصف وملاحظات ومشاهدات وانطباعات شخصية يعوز بعضها في الكثير من الأحيان النظرة الأكاديمية المتأنية.

أما الثانية فتشمل أولئك الرحالة التي دونت ملاحظاتهم بصورة أكثر عمقا ووعيا، فقد شاركوا في حياة الناس الذين عاشوا معهم، واستطاعوا أن ينفذوا إلى أدق التفصيلات عن الحياة في المجتمع الإسلامي، وأن يدونوا بفطنة وكياسة وعمق جميع ما رأوه وما سمعوه وما عاشوه في أثناء وجودهم في الديار المقدسة.

ولعلنا لا نبالغ حين نقول إنها تعتبر مصدرا مهما من مصادر دراسة المدينة المقدسة بالرغم مما في بعضها من مسحة التعصب والروح الصليبية غير المنصفة.

الخلاصة

إن العرض التحليلي السابق، يمكن إيجاز نتائجه على النحو التالي:

١- تمثلت المعارف الأوروبية عن شبه الجزيرة العربية في العصور القديمة بما كتبه مؤرخو الإغريق مثل ثيوفراست وسترابون وإيراتوستين بليني وبطليموس عن تجارة التوابل والبخور وعن القبائل التي استوطنت الجزيرة العربية، وعن بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية.

٢- كانت هناك محاولة احتكاك تمت بين الغرب والجزيرة العربية من خلال الحملة التي قادها أوليوس جالوس عام (٢٤ ق.م). على اليمن، غير أن فشل هذه الحملة أبقى الجزيرة العربية بعيدة عن النفوذ الأوروبي.

٣- بعد انهيار الحضارة الرومانية ساد أوروبا جهل مطبق عن الشرق وحضارته، ولم يكن لأوروبا شيء من المعرفة، اللهم إلا ما حفظ في مكتبات الأديرة والكنائس وما ذكره الكتاب المقدس عن بعض المواقع العربية.

٤- حين انتشر الإسلام، واكتسح البلاد المحيطة بالجزيرة العربية، تقدم نحو أوروبا، ففتح المسلمون شطرا من أسبانيا، وأنشأوا حضارة رائعة، أصبحت على تماس مع أوروبا. وكان هناك موجة دافعة لنشر الإسلام في ربوعها، الأمر الذي أدى إلى تكوين موجة معاكسة تهدف للقضاء على الإسلام، فيما عرف باسم الحملات الصليبية.

٥- أتاح الغزو الصليبي اتصالا مباشرا مع شبه الجزيرة العربية، وكانت هناك محاولات صليبية لغزو المدينة المنورة إلا أنها باءت بالفشل.

٦- مع بداية عصر النهضة، والكشوف الجغرافية، وبداية حركة الاستعمار، بدأ الاتصال المباشر بين الشرق والغرب، فبدأ الغربيون يرسلون الرحالة إلى مختلف مناطق العالم، ومنها الرحلات التي قدمت إلى الديار المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

٧- لقد كانت الأهداف المعلنة لهذه الرحلات كثيرة ومتعددة، غير أن الرابط بينها جميعا، هو خدمة مصالح الدول المستعمرة، ولذلك نجد أن الهدف الاستعماري هو الغاية النهائية لجميع مشاريع هذه الرحلات.

٨- لجأ معظم هؤلاء الرحالة إلى تأهيل أنفسهم للتلاؤم مع معطيات الشرق وعاداته وسلوكياته، وأهم جوانب هذا التأهيل تعلم اللغة العربية، وإتقان الشعائر الدينية، والتزيي بالزي العربي الإسلامي في الملبس والمأكل والمشرب والسلوك.

٩- لقد كتب هؤلاء الرحالة انطباعاتهم ومشاهداتهم عن الديار المقدسة، ونلمس في بعضها روح التعصب والكره، وفي البعض الآخر التفاني في الدقة والضبط، ويمكن القول إن هناك الغث والسمين إلا أن ذلك، علي الرغم من الدوافع التي كانت وراء شكل مادة تاريخية مهمة، لا يستغني عنها الباحثون في هذا الصدد.

مراجع الدراسة:

١- أبو حديبة، عبدالوهاب: الحياة الاجتماعية الإسلامية كما صورها بعض المستشرقين في كتاب «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية جـ٢ منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ ص ١٣٩ - ١٦١.

٢- بدول، روبن: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة عبدالله آدم نصيف، الرياض، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٣- ابن عبود، محمد: منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي في كتاب «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية جـ١، ١٤٠٥هـ ص ٣٤٣-٣٩١.

٤- بوركهارت، جون لويس: رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة الهلابي، عبدالعزيز صالح، والشيخ عبدالله عبدالرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٥- بوركهارت، جون لويس: البدو والوهابية، ترجمة محمد الأسيوطي، دار سويدان، بيروت، ١٩٩٥م.

٦- بيرتون، رتشارد: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (الجزء الثالث) ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٥م.

٧- بيرين، جاكلين: اكتشاف جزيرة العرب ـ خمسة قرون من المغامرة والعلم، ترجمة قدري قلعجي، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت ومكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٣م.

٨- الجاسر، حمد: رحالة غربيون في بلادنا -عرض موجز لرحلات بعض الغربيين في قلب الجزيرة العربية وشمالها، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٤١٧هـ.

٩- حسن، محمد خليفة: رحلة ريتشارد بيرتون إلى مكة والمدينة، بين الاستكشاف والتجسس، بحوث ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، تحرير أحمد أبو بكر باقادر، منشورات وزارة الحج السعودية، ١٤٢٥هـ.

١٠- الزهراني، ضيف الله يحيى: ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة المكرمة من خلال كتاب رحلات في شبه جزيرة العرب لمؤلفه جون لويس بوركهارت، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ج٢، ص ٦٤١ - ٦٧٠.

١١- السرياني، محمد محمود ومرزا، معراج نواب: دوافع رحلة سنوك هورخرونيه وقيمتها العلمية بوصفها مصدرا من مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ج٢، ص ٦٠٥ ـ ٦٣٨.

١٢- السرياني، محمد محمود ومرزا، معراج نواب: أثر الحج على حركات الاستقلال الأندونيسية ـ دروس من رحلة سنوك هورخرونيه بحوث ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، منشورات وزارة الحج السعودية، تحرير أحمد أبو بكر باقادر، ١٤٢٥هـ.

١٣- الشيباني، محمد عبدالهادي: أهداف الرحالة الغربيين وغاياتهم، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ج٢، ص ٥١٣ ـ ٥٥٤.

١٤- عطا الله، سمير: قافلة الحبر ـ الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج ـ دار الساقي، لندن، ١٩٩٤م.

١٥- فارتيما، رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) ترجمة وتعليق عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٦- الفارس، أسعد عيد: الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم، ج ٢، ص ٥٥٤ ـ ٦٠٤.

١٧- كورتلمون، جيل ـ جرفيه: رحلتي إلى مكة، ترجمة محمد أحمد الحناش، مؤسسة التراث، الرياض، ١٤٢٣هـ.

١٨- مايراتا، رامون: مسيحي في مكة (علي باي العباسي) ترجمة رفعت عطفة، منشورات الدار، دمشق، ١٩٩٩م.

١٩- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربية لدول الخليج، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية (جزءان) صدر في إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري، ١٤٠٥هـ.

٢٠- مؤسسة العتبات المقدسة: قسم مكة، مؤسسة الأعلمي، بيروت (ط٢) ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢١- الهلابي، عبدالعزيز صالح، الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتنوني (دراسة مقارنة) بحوث في «ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض خلال الفترة ٢٤ -٢٧ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢١-٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م، الجزء الثاني ٧٩ ـ ١٣٤.

٢٢- هورخرونيه: كرستيان سنوك، مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، تعريب السرياني، محمد محمود، ومرزا معراج نواب، منشورات نادي مكة الثقافي ١٤١١هـ.

23- Pannikar, K. M., Asia and Western Dominance, George Aclen & Unwin Ltd, London, 1960.

24- Ralli, A,. Christians At Mecca, William Heinemann, London, 1959.

سلسلة أعداد الدورية لعامي ٢٠٠٤-٢٠٠٥م

سلسلة إصدارات وحدة البحث والترجمة

١ ـ تقلبات المناخ العالمي عرض وتعليق: أ.د. محمد صفي الدين أبو العز
٢ ـ محافظة الجهراء أ.د. زين الدين غنيمي
٣ ـ تعدادات السكان في الكويت أ.د. أمل العذبي الصباح
٤ ـ أقاليم الجزيرة العربية الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٥ ـ أشكال سطح الأرض المتأثرة بالرياح في شبه الجزيرة العربية أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٦ ـ حول تجربة العمل الميداني لطلاب الجغرافيا بجامعة الكويت أ.د. صلاح الدين بحيري
٧ ـ الاستشعار من بعد وتطبيقاته الجغرافية في مجال استخدام الاراضي أ.د. علي علي البنا
٨ ـ البدو والثروة والتغير:
دراسة في التنمية الريفية للامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان ترجمة د. عبد الاله أبو عياش
٩ ـ الدليل البحري عند العرب حسن صالح شهاب
١٠ ـ بعض مظاهر الجغرافيا التعليمية لمقاطعة مكة المكرمة د. ناصر عبدالله الصالح
١١ ـ طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي حسن صالح شهاب
١٢ ـ نباك الساحل الشمالي في دولة الكويت دراسة جيومورفولوجية د. عبدالحميد أحمد كليو
د. محمد اسماعيل الشيخ
١٣ ـ جغرافية العمران عند ابن خلدون د. عبد العال الشامي
١٤ ـ السمات العامة لمراكز الاستيطان الريفية في منطقة الباحة د. محمد محمود السرياني
١٥ ـ جزر فرسان دراسة جيومورفولوجية د. محمد سعيد البارودي
١٦ – جوانب من الشخصية الجغرافية للمدينة المنورة د. محمد أحمد الرويثي

سلسلة منشورات وحدة البحث والترجمة

١- بيئة الصحاري الدافئة — ترجمة : أ . د . علي علي البنا
٢- الجغرافيا العربية — تعريب وتحقيق : د . عبدالله يوسف الغنيم — د . طه محمد جاد
٣- مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي — د . عبدالعال الشامي
٤- العالم الثالث : مشكلات وقضايا — ترجمة : أ . د . حسن طه نجم
٥- التنمية الزراعية في الكويت — أ . د . محمد رشيد الفيل
٦- القات في اليمن : دراسة جغرافية — د . عباس فاضل السعدي
٧- هيدرولوجية الأقاليم الجافة وشبه الجافة — تعريب : د . سعيد أبو سعدة
٨- منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض — أ . د . عبدالله يوسف الغنيم
٩- البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي — تحقيق القاضي إسماعيل الأكوع
١٠- المدن الجديدة بين النظرية والتطبيق — د . أحمد حسن إبراهيم
١١- الأبعاد الصحية للتحضر — ترجمة : أ . د . محمد عبدالرحمن الشرنوبي
١٢- التطبيقات الجغرافية للاستشعار من بعد : دليل مراجع — د . صبحي المطوع
١٣- قواعد علم البحر — حسن صالح شهاب
١٤- الانسياق الرملي وخصائصه الحجمية بصحراء الدهناء على خط الرياض ـ الدمام — مشاعل بنت محمد بن سعود آل سعود
١٥- التخطيط الحضري لمدينة الأحمدي وإقليمها الصناعي — د . وليد المنيس ـ د . عبدالله الكندري
١٦- كيف ننقذ العالم — تعريب : أ . د . علي علي البنا — أ . د . زين الدين عبدالمقصود
١٧- أودية حافة جال الزور بالكويت تحليل جيومورفولوجي — د . عبدالحميد كليو
١٨- الألواح الجيولوجية ونظمها التكتونية — ترجمة : أ . د . حسن أبو العينين
١٩- جيومورفولوجية منطقة الخيران جنوب الكويت — د . السيد السيد الحسيني
٢٠- الشوائب في تحقيق الفوائد في أصول علم البحر والقواعد لابن ماجد — حسن شهاب الدين
٢١- التحضر في دول الخليج العربية — د . خالد محمد العنقري
٢٢- جغرافية العالم الثالث — تعريب : د . حسن طه نجم — د . مكي محمد عزيز — د . خالد العنقري
٢٣- الصور الجوية ـ دراسة تطبيقية — د . عبدالحميد كليو
٢٤- جيومورفولوجية منخفض أم الرمم بالكويت — د . محمد إسماعيل الشيخ
٢٥- جيومورفولوجية منطقة كاظمة — د . عبدالعال عبدالمنعم محمد الشامي
٢٦- السرحات السلطانية — د . عبدالله بن ناصر الوليعي
٢٧- اليابانيون الأمريكيون — د . عبدالله بن ناصر الوليعي
٢٨- بحار الرمال في المملكة العربية السعودية
٢٩- كفاءة الري وجدولة المياه في منطقة الخرج بالمملكة العربية السعودية — د . نورة بنت عبدالعزيز آل الشيخ
٣٠- البحث الجغرافي في دولة الكويت — أ . د . عمر الفاروق السيد رجب
٣١- الطرق والمسالك الشرقية لمصر في العصر الوسيط — أ . د . عبدالعال عبدالمنعم الشامي

٣٢-تطور التعدادات السكانية بدولة الكويت .	أ .د .أمل يوسف العذبي الصباح
٣٣-تغيرات مستوى سطح البحر خلال البلايستوسين وآثارها الجيمورفولوجية على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر	د .محمد سعيد البروادي
٣٤- سجل الزلازل العربي «أحداث الزلازل وآثارها في المصادر العربية»	أ .د .عبد الله يوسف الغنيم
٣٥- فيزياء الرمال المذروة	د .محمد عبدالله الجراش
٣٦- المنافذة البرية الدولية للمملكة العربية السعودية	د .نجاح مقبل عبدالله القرعاوي